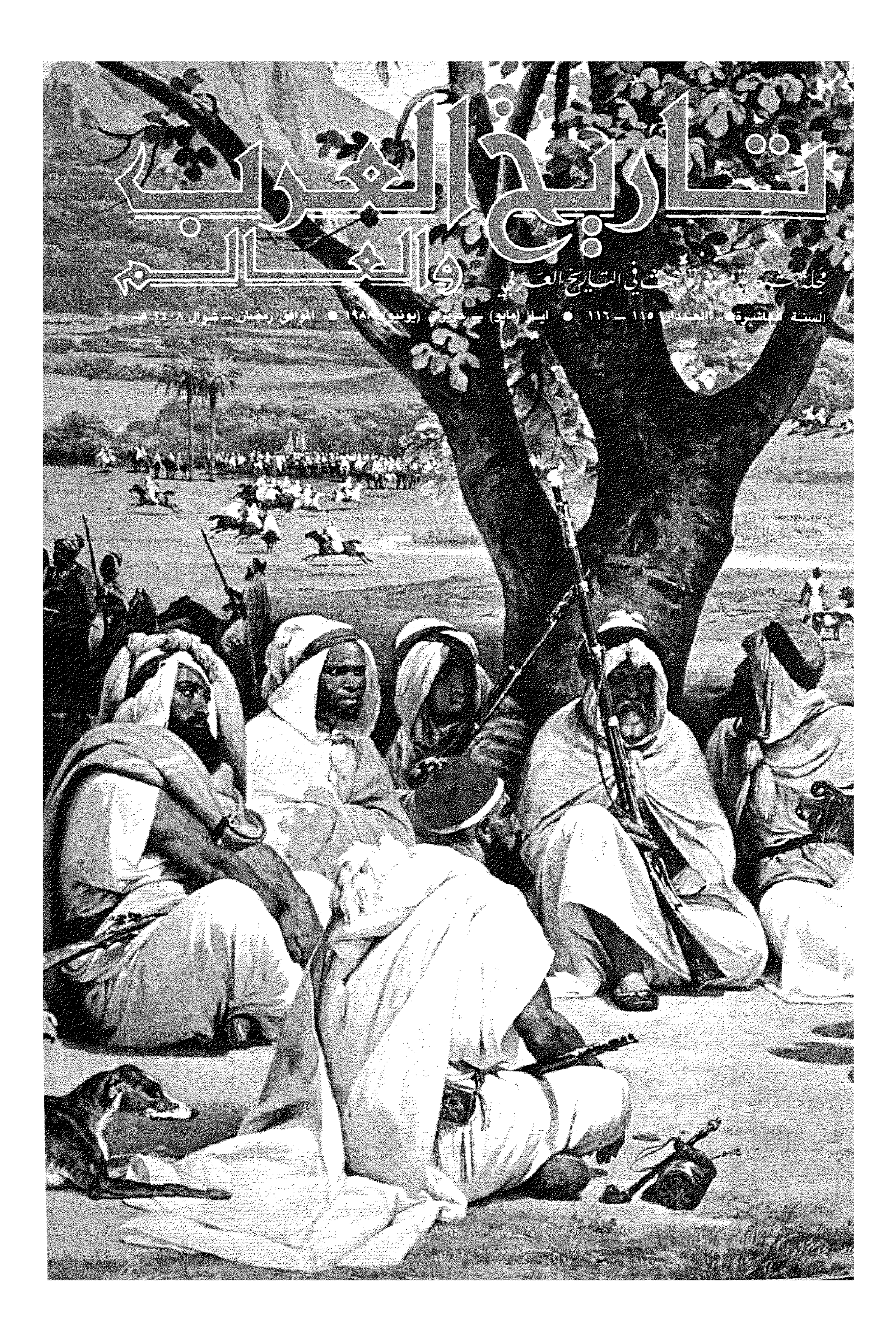
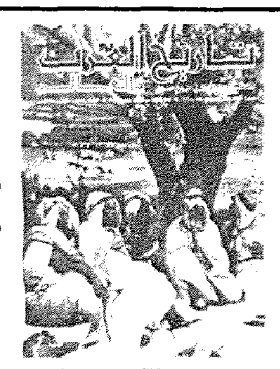


تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة العاشرة ● العددان ١١٥ ـ ١١٦ ● ايار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٨ ● الموافق رمضان ـ شوال ١٤٠٨ هـ

□ قطعة نقدية على وجهها صورة خليفة.



الغلاف الاول

□ مجلس إشراف القوم يجتمعون في ظل شجرة سنديان (القرن التاسع عشر ميلادي) من كتاب The Civilization of Islam. by jean Mthé P.40.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

# تاريخ العرب والعالم

العددان ١١٥ ــ ١١٦ ● ايار ــ حزيران ١٩٨٨.

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج : مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان : للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي : للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي : للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14. No. 115/116, May - June 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **الثقافة الإسلامية في لبنان منذ الحرب الأولى**
د. رضوان السيد ٢

□ **ملاحظات حول ظاهرة الإرهاب الــدولي**
د. محمد المجذوب ٨

□ **آثار إسلاميــة :**
زخرفة المقرنص الإسلامية
«قسم التوثيق والأبحاث» ١٨

□ **اليقظـة العلمية في بيروت العثمانيــة**
د. حسان حلاق.................. ٢٠

□ **الكرك ــ نوح ودورها السياسي والحضاري في العالم الإسلامي**
تأليف : د. حسن عباس نصرالله
مراجعة : د. حسين سلمان سليمان ٤٠

□ **أرناط الفارس اللص نشاته حياته غزواته ودوره في تهيئة الظروف لمعركة حطين**
د. برهان العابد ٥٤

□ **معاهــدات :**
معاهدة النبي العربي (ﷺ) مع اليهود
إعداد : شذا عدرة ٦٤

□ **من قصص العرب :**
الشاعر المغنّي.................. ٧١

□ **مدن عربية تحت الاحتلال**
بيــت لحــم
«قسم التوثيق والأبحاث» ٧٢

□ **دائرة المعارف : هدنــة** ٧٩



الثقافة الإسلاميّة في لبنان منذ الحرب الأولى

التغيير والتجديد والتمرّد العاجز

د. رضوان السيّد

نهاية التقليد



الصورة صورة تاريخية من الطراز الأول. والواقعة واقعة تاريخية من الطراز الأول. لكن كما في أكثر تلك اللحظات الهامّة في التاريخ الحديث والمعاصر، تصبح الصورة أكثر تجسيداً والتقاطاً للتاريخ من الحدث نفسه. أمّا الحدث فهو إعلان قيام لبنان الكبير من جانب الجنرال غورو بعد وقعة ميسلون عام ١٩٢٠. وأمّا الصورة فللجنرال المنتصر بميسلون وبلبنان الكبير يحيط به من اليمين البطرك الحويك، ومن اليسار المفتي الشيخ مصطفى نجا. صورة تكثّف الرمز بتركيبها، بل وبواقعيتها إلى درجة تستعصي على التصديق لما تعنيه من نهايات أكثر مما تعنيه من بدايات. إنها نهايات كثيرة كثيرة: نهاية الدولة الإسلامية العثمانية، ونهاية الوضع المتميّز للمسلمين ببلاد الشام، ونهاية الحلم الذي لم يستمرّ غير شهور، حلم الدولة العربية الوارثة للسلطنة في منطقة المشرق العربي. لكنها قبل ذلك وبعده نهاية للثقافة الإسلامية التقليدية التي اكتملت مع الصعود السلجوقي، وبلغت الذروة في الحقبة المملوكية، واستقرّت عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

إنها ثمانية قرون من السيادة التي لم يكد يعكّرها شيء بحيث ما كان لرجالات مثل الشيخ أحمد الأغرّ، وعبد الباسط الفاخوري، وعبد القادر القباني، ومصطفى نجا أن يصدّقوا أنّ ذلك كلّه يمكن أن ينتهي هكذا فجأة، وفي ساحات معارك الحرب الأولى وليس في جبهات النضال الثقافي. ومن هنا فالذي لا شكّ فيه أنّ الشيخ نجا الجالس على شمال الجنرال الفرنسي ما كان يدرك خطورة جلوسه أو قعوده هذا، هو الرجل الصوفيّ الشافعيّ الذي كانت خصوماته طوال حياته لا تتجاوز مماحكات مع فقهاء السلطنة من الأحناف أو الجدل مع السلفيين الجدد المعادين للصوفية والتصوف. كانت كتاباته وكتابات سلفه الشيخ الفاخوري لا تتعدّى الابتهالات الصوفية، والحواشي على تفصيليات الفقهاء، والموجزات في تاريخ الإسلام والسلطنة، والمدائح النبوية، والدفاع مع الشيخ يوسف النبهاني عن كرامات الأولياء في وجه منكيريها.

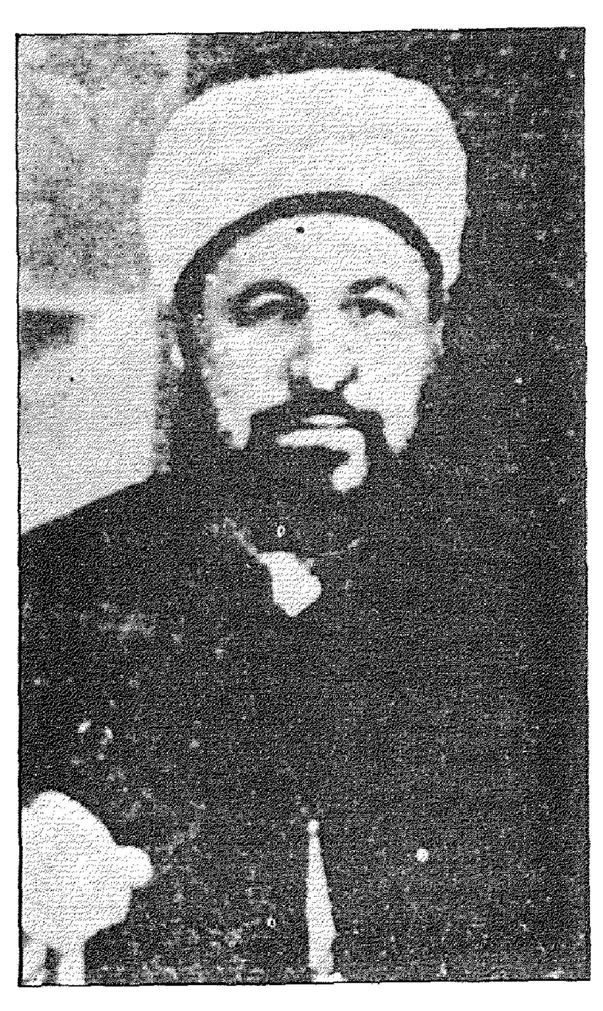
وعبثاً يحاول مؤرّخو السنّة المحدثون الدفاع عنه بالقول أنه رفض لقب «مفتي الجمهورية اللبنانية»، وأصرّ على لقب «مفتي بيروت» حتى وفاته. فالرجل وجيله من شيوخ التقاليد العريقة، هم ممثّلو حقبة ماضية مضت منذ عقود دون أن يدركوا جميعاً ذلك. فهل كان البطرك الحويك

مــدركـاً لخــطورة تلك اللحـظات التــاريخية هو الجالس إلى يمين السلطان الجديد؟!

أيا يكن الأمر فإنّ البطرك بخـلاف المفتي سعى بوعي ومنذ سنـوات قبل العـام ١٩٢٠ للوصول إلى الكيان. لكنّ المشكوك فيه أن يكون قد أدرك تماماً عقابيل تلك الجلسة وعواقبها. فكتابات جبـران ونعيمه في العشـرينات كـانت ما تزال تؤكّد على المشكلات الداخلية، وتعتبر الإصـلاح إصلاحـاً ذاتيـاً داخليـاً بمعزل عن عـواصف العصر، وبدايـات النـظام الدولي في البلقان، والمشرق العـربـي. لكنّ الجلوس على يمين الجنرال كان خيراً ولا شكّ في نظر البطرك الحـويك ومشايعيه من أن لا يكون لهم مجلس على الإطلاق. أمّا جلسة مفتينا الجانبية فكانت ولا شـكّ إيذانـاً بأنـه لم يعد لتلك المـنظومة التقليدية مكان في السلطة السياسية الجديدة. وكان الشيـخ نجا فعلاً آخر مفتي بيروت، كما كان آخر مفتي السلطنة أو الحاصلين على براءة تولية من السلطان.

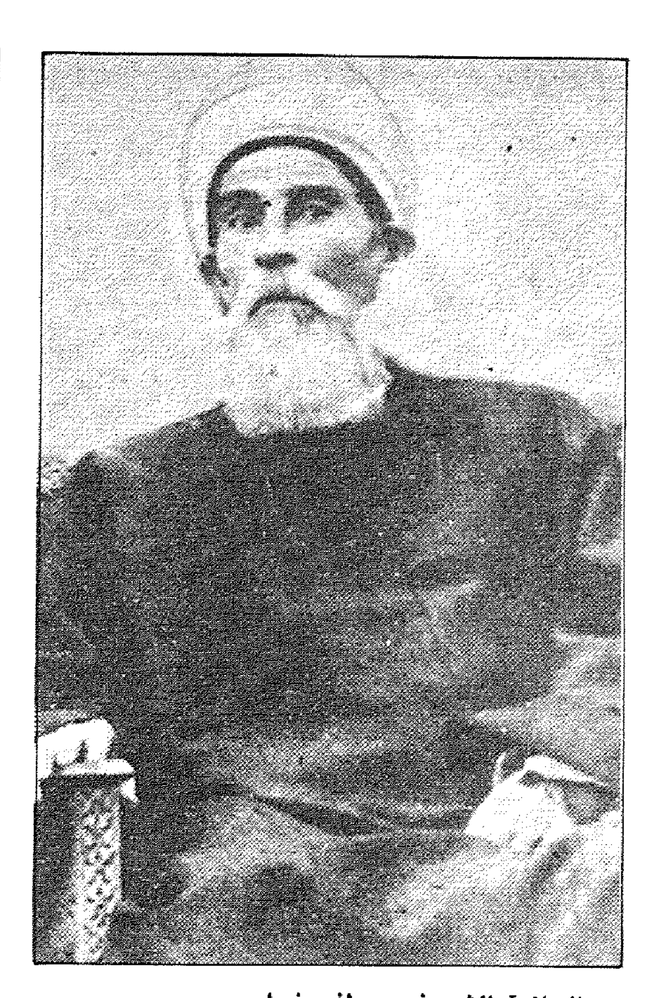
إشكاليات الإصلاح

بيد أنّ نهاية الفاخوري ونجا، رجلي الثقافة الإسلامية التقليدية، كانت بمعنى من المعاني نهاية لتيار ثقافيّ إسلاميّ آخر طلـع من قلب التقليد، وسعى للإصلاح والتجديد انطلاقاً منه هو تيّار الشيـخ محمد عبده وتلامذته. ونعني بهم في سياقنا هنا أمثال السيد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، والسيد محسن الأمين. فقد عاش هؤلاء في وهـج العصر، وعانوا قضايا الإصـلاح الداخليّ، وأدركـوا تشابـك الخارج بالداخل، وهجمة الخارج على الداخل، لكنهم أبوا أن يقطعوا مع أي طرف بالداخل أو بالخارج، كما أبوا في الوقت نفسه أن يتجاوزوا التقليدية الإسـلاميـة. كـان التقليـد مـا يـزال يتمتـع بالمشروعية الرسمية المؤسّسية، كما كان ما يزال يتمتـع بركائز اجتماعية معتبرة من خلال الطرق الصوفية، والأصناف، ورجالات الأوساط المدينية. كان الإصلاحيون يعيشون حتى إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ في قضاء الجامعة الإسلامية التي اخترعها جيل جمال الدين الأفغاني، فيهربون من قتامة الداخل المشرقي باتّجاه إسلام الهند



□ الإمام المجاهد الشيـخ محمد رشيد رضا.

وأندونيسيا والمغرب من الناحية الثقافية. وباتجاه الاعتماد على تناقضات السياسات الاستعمارية للدول الأوروبية بالمشرق. يتجادلون مع التقليدية الشافعية والحنفية العثمانية، بالعودة إلى حنبلية ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب. ويـنـاضلون الفرنسيين بالتوجـه نحو الإنجليـز، ويناضلون الإنجليز بالتوجه نحو الطليان والألمان. ما كانوا يجرؤون على التفكير ببدائل للخلافة العثمانية. حتى أذا ألغى مصطفى أتاتورك الخلافة، معلناً انسحاب تركية من الوحدة العثمانية، سـارع رشيد رضا إلى التنظير لإمامـة عظمى لإمـام أو سلطان آخـر رغم زوال الإمامـة والسلطنة أو زوال دار الإسلام لصالـح الجزء المشرقي من النظام الدولي الجديد. صحيـح أنّ اهتمامات هؤلاء أو وجوه تركيزهم كانت متنوعة. فقد غلبت الاهتمامات والحلول الفقهية على رشيد رضا ومحسن الأمـين. بينمـا غلبت الاهتمـامـات



□ العلامة الشيخ مصطفى نجا.

السياسية على شكيب أرسلان. لكنّ أدوات النضال كانت واحدة. لقد ظلّت تلك الأدوات هي أدوات التقليد الإسلامي ذاتها: النّص القرآني الأحاديث النبوية. بالنّص القرآني، وآثار آل البيت

حاول محسن الأمين أن يبعث روحاً إصلاحية تتجاوز الإسلام الشيعي الشعبي، إسلام تقاليد الغدير وعاشوراء وملحمة الحسين. وبالسنة الصحيحة حاول رشيد رضا أن يتجاوز تقليدية الطرق الصوفية، وتدقيقات فقهاء التقليد. فإذا وصل الأمر إلى المشروع السياسي الإسلامي العامّ الذي كان يحتضر مع احتضار السلطنة، اغفلوا نصوص التقليد جميعها دون أن يجدوا مستنداً شرعياً أو مشروعية معتبرة لتخبطاتهم بين قوى الاستعمار، والقوى السياسية الجديدة المتكونة على حواشي النظام الدولي، وفي تعاون ظاهر أو مستتر معه. وتفتّقت أذهان رجالات **حركة الخلافة** بالهند عن حلّ اعتبروه بديلاً للخلافة العثمانية الزائلة. فقد أبوا أن يعترفوا بزوال **دار الإسلام** أو فكرتها لزوال السلطنة، فرأوا العودة للأصل، **للإجماع**، صاحب أصل السلطة في الإسلام السنّي، فكانت المؤتمرات المتتابعة لعلماء الإسلام في العشرينات، والتي توّجت بالمؤتمر الإسلامي بالقدس عام ١٩٣١، وهو **مؤتمر الإجماع** الذي رجوا من ورائه وفي مقدمتهم رشيد رضا وشكيب أرسلان أن يحلّ إشكالية زوال الخلافة، والتهديد الصهيوني لفلسطين، والاستعمار الغربي لأكثر ديار الإسلام. وما فكّر أكثر الإصلاحيين الذين تولّوا المناصب الرسمية في الكيانات الجديدة الطالعة على أنقاض دار الإسلام، بماهية هذه الكيانات، وكيف ينبغي التعامل معها، ومع سلطاتها الناشئة برعاية المستعمرين وحمايتهم. وحده الأمير شكيب نظر لذلك كلّه بعين ناقدة بسبب وجوده في الخارج، وعدم اضطراره لمجاملة هذا الحاكم أو ذاك. لكنه في الوقت نفسه لم يجرؤ على طرح مشروع **الأمة العربية** أو **المشروع السياسي العربي** باعتباره الوارث للمشروع **الوحدوي العثماني** رغم تأسيسه لمجلة **«الأمة العربية»** بسويسرا. لقد راودت الفكرة الجميع على مايبدو، لكن كيف كان يمكن الدعوة إليها والهنود مايزالون يدعون للخلافة، وربما كانوا يوافقون على خليفة عربيّ؟ وكيف كان يمكن الدعوة إليها ولم يشتدّ ساعدها بعد في مصر رغم وجود إصلاحيّ إسلامي كبير شيخاً للأزهر هو محمد مصطفى المراغي؟! كان مأزق الإصلاحيين عدم القدرة على القطع مع التقليد حتى لا يفقدوا المشروعية، وعدم القطع مع البريطانيين حتى لا يواجهوا النفي أو تتحدّد حرية حركتهم. وفي الوقت نفسه ما كانوا يستطيعون التواصل التّام مع الكيانات المتكوّنة خشية الوصول للاعتراف بزوال دار الإسلام وعدم وجود البدائل. لذلك تحولت حركتهم إلى ردود أفعال ناقدة أو مؤيّدة لهذه السلطة أو تلك، ولهذا التصرف أو ذاك — دون أن يكون هناك سياق شامل لتلك التحركات المتضاربة إلّا إذا اعتبرنا الموقف المتحفّظ من الظواهر السياسية الجديدة سياقاً معتبراً. وكان هذا أيضاً هو شأن حركة العلماء الجزائريين والجماعة الإسلامية بالهند، وحركة الأخوان المسلمين المتكوّنة بمصر. وما ملك الإصلاحيون

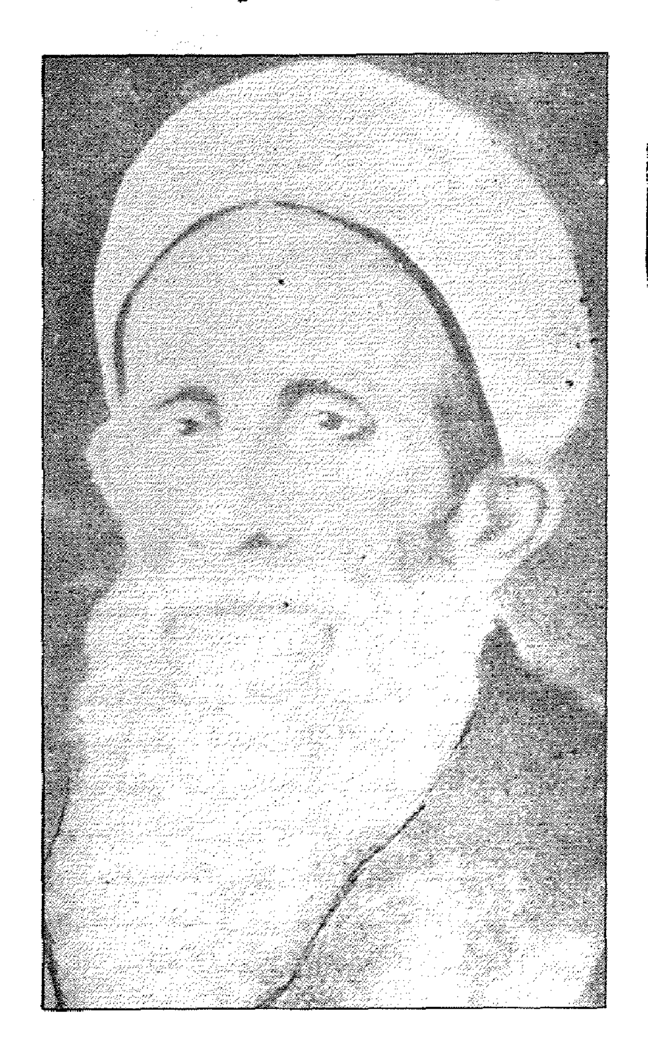
□ الأمير شكيب أرسلان.

أفراداً وجماعات غير الصمت أمام تحركات السياسيين الذين تجاوزوهم في الثلاثينات، وراحوا يؤسّسون حركات وطنية محلية تناضل الاستعمار في بلدانها، وتؤجّل الحديث في الهوية، وإشكاليات الكيانات الجديدة مع الاسلام الواحد، لما بعد الاستقلال القطري. وهكذا شاخ الإصلاح الإسلاميّ دون أن يعيش شباباً واعداً، وكهولة ناضجة، مع وفاة رشيد رضا عام ١٩٣٥، وشكيب أرسلان عام ١٩٤٦، ومحسن الأمين عام ١٩٥٢.

وليس بالوسع اعتبار الشيخ عبد الله العلايلي واحداً من أولئك الإصلاحيين، لأنه قطع مع التقليد، وتيار الإصلاح، في الوقت نفسه. لكنّ ذكره في هذا السياق ضروريّ، لأنه أصدر عام ١٩٤١ كتابه: «دستور العرب القومي» الذي دعا فيه لقومية عربية، وأمة عربية، ووحدة عربية، متجاهلاً الكيانات الجديدة في الوقت نفسه الخلافة الغاربة. وكان ادمون ربّاط قد سبقه لذلك في رسالة له عام ١٩٣٧.

وهكذا فإن ذكر هذين في سياق الإصلاحيين رغم عدم انضوائهم في تياراتهم، يعود إلى أنهما كانا بمثابة النتيجة المنطقية لأحاديث رشيد رضا

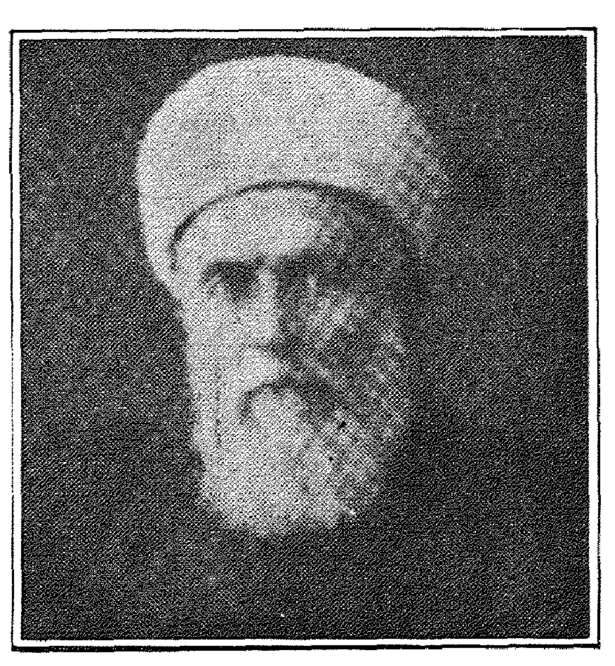
□ الشيخ عبد الباسط الفاخوري.



وشكيب أرسلان ومحسن الأمين عن الأمة العربية من الناحية الثقافية فما فعله العلايلي هو تحويله فكرة الإصلاحيين الثقافية إلى مشروع سياسيّ، وإن لم يحدث ذلك انطلاقاً منهم مباشرة.

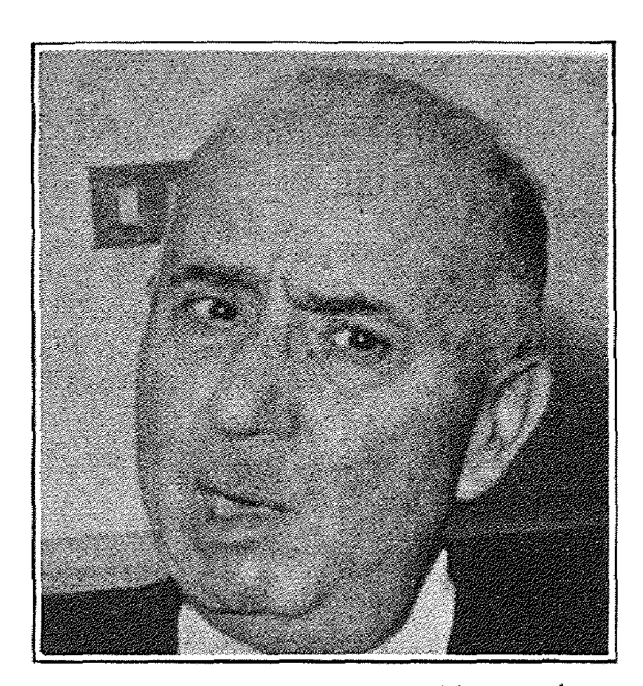
التمرد العاجز

.. وانتهت الحرب العالمية الثانية باستتباب الكيانية العربية، وقيام الجامعة العربية تتويجاً لها، ودرءاً عنها. وعلى مستوى لبنان، فإنّ الثقافة الإسلامية وقعت أسيرة الإشكاليات التي اصطنعها النظام الطائفي في الدستور والميثاق والدولة. فقد انصرف المثقّفون والصحفيون والسياسيون المسلمون للدعوة لإصلاح النظام بإزالة الغبن عن المسلمين في جهاز الدولة. وقد وصلت هذه المحاجّة إلى التاريخ والجغرافية



□ الشيـخ عبد القادر القباني.

والأخلاق والدين. فقد كان مهما بالنسبة للمرحوم الدكتور زكي النقاش أثبات إسلامية بل سنّية الأمير فخر الدين المعني الثاني، إثباتاً لأصالة المسلمين بلبنان. وراح المؤرّخ محمد جميل بيهم في اتّجاه معاكس لكن للوصول للنتيجة نفسها، أنه لا أحد أفضل من أحد ـ فالمسلمون عريقون بلبنان عراقة المسيحيين. وهذا ما حاوله ويحاوله آخـرون كثيرون من المثقفـين المسلمـين حتى السنوات الأخيرة من محمد علي مكّي وعمـر تدمري، إلى حسّان حلّاق ومحمد علي ضناوي. وكان الوجه الآخر لهذا الإحساس العميق بالظلم والاضطهاد والغبن السير في اتجاهات إسلامية فضفاضة ودفاعية في وجه أيديولوجيا الانعزال، والهجـوم على الإسـلام والمسلمين بـاعتبـارهم متخلّفين وصحراويين وغير حضاريين. في هـذا السيـاق استعـاد د. عمـر فـرّوخ جـداليـات جمال الدين ومحمد عبده مع رينـان وهانـوتو وفرح أنطون، لكنّ الخصوم هذه المرة كانـوا المبشرين الذين يريدون افتراس الإسلام بشكل عام. وشارل مالك، وفؤاد افرام البستاني ومن لفّ لفّهما، ممن كتبوا ويكتبون ضدّ الإسلام، توصّلاً لتبرير استغلال المسلمين، واضطهادهم في الكيان. فإذا كانت معركة زكي النقاش ومحمد علي مكي وعمر تدمري تاريخية وجغرافية، فإنّ معـركة عمـر فرّوخ حضـارية عـامّة. الأولون



□ إدمون رباط.



يستعيدون الكيان جغرافياً وتـاريخياً للإسـلام والمسلمين، وعمر فرّوخ يخوض معركة العلاقة غير العادلة بين المسيحية الهاجمة على الإسلام، والإسلام المتشبّث بمواقعه دفاعاً عن عقيدتـه وحضارته ومستقبله. وكما وقـع الإصلاحيـون ضحيـة للحطام المتنـاثر نتيجـة انهيار الدولة العثمانية، فإنّ إسلاميـي ما بعد الحرب الثانية بلبنان كانوا ضحية تبلور المشروعات الكيانية العربية، والإشكاليات الداخلية الناجمة عن هذا التبلور. وبالوسـع تأمّل بعض من إشكاليات هذا الفكر في المحاضرات التي ألقاها المسلمون من على منبر **الندوة اللبنانية** في عشري الخمسين والستين، أذ تمثّل تلك المقـولات العلنية ذات الطابـع الشامل الطرف الآخر للحجاج الثقافي الداخلي. فقد كان الطرف الأول الشديد المحلية إبـراز الغبن الفظيـع، والدفـاع عن إنجازات المسلمين التاريخية بلبنان وله. بينما كان الطرف الآخر البارز في محاضرات المسلمين من على منبر **الندوة** بلورة الإسلام باعتباره منظومة حضـارية عـظيمة وسـامية، تـؤمن بالتحـديث، وتنـاظر المسيحية الحضارية السامقـة بلبنان والغـرب الأوروبـي. وواضـح أنّ كلا الطرفين حجاجيّ دفاعيّ مستميت في التماهي مع مقولات الفريق المسيحي، وإن بدا في العلن شديد المخاصمة له.

وقد كانت لبعض أجنحة التيار الثاني ثمرات علمية إيجابية، بسبب تضاؤل النزعة الجدلية فيها، وإن كان أصلها حجاجياً. إذ انصرف عمر فرّوخ للتأريخ للعلوم العربية الإسلامية، وانكبّ صبحي المحمصاني على الفكر الفقهي الإسلامي مقنّناً ومنظّماً ومقارناً مع المنظومات القانونية الغربية. ودأب صبحي الصالح على صياغة التراث الإسلامي في علوم القرآن، والسنة، واللغة، صياغة «عصرية» مدرسية جيدة. وأنجز محمد جواد مغنية مؤلّفات مفيدة في مجال الفقه التفصيلي، فقه الحلال والحرام، في ظلّ هموم العصرنة، ومساوقة الجديد في الحياة الاجتماعية.

لكنّ هؤلاء جميعاً، في لجوئهم إلى صوفية علمية تحديثية المظهر، كانوا يعلنون انسحابهم من معركة الإسلام السياسي التي انفجرت بمعزل عنهم منتصف عشر الستين، وما تزال مشتعلة الأوار. إذ لم تكن إشكالية الفكر الإسلامي بلبنان، بعد الحرب الثانية، كما يزعم الكثيرون اليوم، رفض الكيان لصالح مشروعات عربية أو إسلامية أوهما معاً، بل كانت الاستماتة من أجل الحصول على اعتراف بهم كما هم، بإسلامهم وعربيتهم، في وقت بدأ فيه الطرف الآخر مستعداً للاعتراف بالعالم كلّه إلّا بهم هم خشية النتائج السياسية المترتبة على تفهّم ذلك الهمّ الثقافي الغلّاب. من هذا المنطلق يمكن لنا اليوم، بعد أن لم تعد الساحة الثقافية ما كانته قبل اندلاع الحرب الأهلية، أن نفهم شراسة ذاك **التمرّد العاجز** الذي توفي آخر رموزه، أعني د. زكي النقّاش منذ فترة، في رفض **العلمنة** التي سبق لأكثرهم في عشر الخمسين أن أيّدوها. فقد فهموا من نقل النقاش حول العلمنة من الجدل الثقافي إلى الجدل السياسي، محاولة لإلغائهم من نافذة شديدة الحساسية بالنسبة لهم هذه المرة نافذة الهوية الثقافية الواحدة، وهي كلّ ما تبقى لهم.

لكن، ماذا بعد؟ وأين هم المسلمون بلبنان اليوم؟ أنّ الباقي والمستقبليّ ذاك المشروع الثقافي/ السياسي الذي يحمل لواءه على المستوى الثقافي الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وعلى المستوى السياسي الدكتور سليم الحصّ. وبدايات ذلك بل حدوده القصوى: كرّاس كاظم الصلح في الاتصال والانفصال في عشر الثلاثين من هذا القرن. إذ ليس ممكناً في الثقافة والفكر والسياسة أن يمضي المسلمون أبعد من ذلك في الأدْلَجةِ للكيان، أيّ كيان كان. في هذا المجال يمثل مشروع الشيخ محمد مهدي شمس الدين فهماً عربياً إسلامياً واضحاً ومتوازناً لعلاقة الخاصّ بالعامّ، المحلّي والإقليمي بالعربي والإسلامي. وتمثّل **نافذة** الدكتور سليم الحصّ على **المستقبل** تقويماً نقدياً لمسيرة بناء الوطن والدولة، وآفاق الإصلاح السياسي الضروري لاستمرار الوطن والدولة.

إنّ مشروع هذين الرجلين لبناء الوطن والدولة، هو البلورة الوحيدة الممكنة اليوم للفكر الإصلاحي الإسلامي في حقبة ما بين الحربين. وهو بمعنى ما التجاوز الضروري للتمرد المجهض لمثقفي المسلمين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما بعد حربنا المحلية الثانية أيضاً. فهل يتجاوز الطرف الآخر نفسه أيضاً من أجل بناء وطن للجميع ودولة حديثة عادلة؟ أرجو أن يكون ذلك.



● «خلق الله لنا يدين: واحدة لنعطي بها فلا يجب إذاً أن نجعل من أنفسنا صناديقاً للادخار، وإنما قنوات يعبرها الخير ليصل إلى غيرنا».

(بيلي جراهام)

ملاحظات حول ظاهرة الإرهاب الدولي

د. محمد المجذوب (*)

لقد اتّسع، في الآونة الأخيرة، نطاق الإرهاب الدولي فعمّ مختلف أرجاء الدنيا، واتّسم بالعنف الشديد، وأشاع جواً من الذعر والقلق.

ولم تَخْلُ عمليات الإرهاب من آثار مأساوية دراماتيكية تجسّدت في تصفية الرهائن ونسف الطائرات وتدمير المنشآت...

وإذا كان البعض يلجأ أحياناً إلى أسلوب العنف والتهديد لانتزاع بعض المكاسب المعقولة، فإن البعض الآخر يتخذ من العنف وسيلة لابتزاز الأموال أو إرضاء النزوات الخسيسة. وكانت إسرائيل رائدة سباقة في هذا المضمار، ففي ١١/٥/١٩٦٠، اختطفت الألماني (ايخمان) من ضواحي العاصمة الأرجنتينية ونقلته جواً إلى تل ابيب وأذاقته قبل إعدامه كل أنواع التعذيب الجسدي والنفسي. وكل ذلك دون احتجاج من الدولة التي انتُهكت حرمة سيادتها، ودون استنكار من الهيئات والمنظمات الدولية التي تدعي الحرص على حقوق الإنسان.

وإلى جانب القلق العالمي الذي اشتدت وطأته بسبب انتشار العمليات الإرهابية، فإن مشكلة الإرهاب قد فجرت جدلاً طويلاً ما زال يتفاعل في الأوساط الدولية والفكرية. وفي كل مرة تُبحث فيها المشكلة يُسفر الجدل عن اختلاف في المواقف وتباين في ردود الفعل.

وليس ذلك بالأمر المستهجن، فالعالم اليوم، كما كان في كل عصر، منقسم على نفسه من حيث العقيدة والاتجاه والمصلحة. ولا يُنتظر منه الإجماع على اية قضية أو ظاهرة معينة.



مع تصاعد وتيرة الأعمال الإرهابية، وتصاعد الخسائر المعنوية والمادية، وتصاعد الشعور بالهلع في المجتمع الدولي، عكفت المنظمات الدولية، وفي مقدمتها الأمم المتحدة، على دراسة هذه الظاهرة للتعرف إلى أسبابها وإيجاد التدابير المناسبة لقمعها أو الحدّ من أخطارها.

ويمكننا إلقاء نظرة عجلى على مختلف الجهود التي بذلها المجتمع الدولي في هذا السبيل، من خلال الملاحظات العشر التالية:

الملاحظة الأولى
خطورة الإرهاب

يُعدّ الإرهاب الدولي من أخطر الظواهر التي عرفها المجتمع الدولي الحديث. وتكمن خطورته في عدة أمور أو نتائج نذكر منها:

١ ــ العدد الهائل من الضحايا التي تسقط.

٢ ــ والخسائر المادية الفادحة التي تصيب الممتلكات والمؤسسات العامة والخاصة ومختلف وسائل الاتصال.

(*) مداخلة قُدّمت في الندوة العالمية حول الإرهاب الدولي التي اقامتها منظمة الاشتراكيين التقدميين لحوض البحر المتوسط، في طرابلس الغرب، ما بين ١٣ و ١٦/٤/١٩٨٨.



□ الإرهاب في إيرلندا.

٣ ــ والذعر الرهيب الذي يستولي على الناس، وجُلّهم من الأبرياء.

٤ ــ وعدم التمييز، عند ارتكاب أفعال القتل والإيذاء، بين الأشخاص أو الأهداف.

٥ ــ والاستهتار بكل المبادىء والاتفاقيات والمواثيق القانونية والأخلاقية.

٦ ــ وتوتير العلاقات الدولية مما قد يؤدي إلى حروب واصطدامات مسلحة.

الملاحظة الثانية
إرهاب الدولة

لا يكون الإرهاب الدولي دائماً نتيجة فعل يرتكبه فرد أو جماعة بدافع الانتقام أو الابتزاز أو التخريب، بل قد يكون نتيجة حملات إجرامية تنظمها بعض الدول بقصد قمع حركات التحرر، أو منع شعب من المطالبة بحقوقه المشروعة، أو فرض سياسة معينة أو توجيه معين على حكومة مستقلة. والأمثلة المعاصرة كثيرة، نذكر منها:

١ ــ الإرهاب الذي يمارسه الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين وضد الدولة العربية.

٢ ــ سياسة الإرهاب التي يتبعها النظام العنصري في جنوب أفريقيا ضد السكان الأصليين من الأفريقيين.

٣ ــ أسلوب الإرهاب تنفّذه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضد الدول التي ترفض الرضوخ لإرادتها. وعدوانها على الجماهيرية الليبية شاهد على ذلك.

الملاحظة الثالثة
قِدَم ظاهرة الإرهاب

ليست ظاهرة الإرهاب الدولي نتيجة حادث معين، كما أنها ليست حدثاً جديداً في التاريخ السياسي، فقد عرفت البشرية هذه الظاهرة منذ القدم. ويكفينا أن نشير إلى الأعمال الإرهابية التالية:

١ ــ اغتيال الامبراطور الروماني يوليوس قيصر، في العام ٤٤ قبل الميلاد، داخل مجلس

الشيوخ، بتحريض من الطبقة الأرستقراطية التي نقمت عليه بسبب إصلاحاته الشعبية.

٢ — أساليب الإرهاب والعنف التي لجأت إليها جماعة (الحشّاشين) في القرن الحادي عشر من أجل مقاومة سطوة الحكام السلاجقة، والتي كان من أبرز نتائجها اغتيال الوزير السلجوقي، نظام الملك، في العام ١٠٩٢، واغتيال المركيز الصليبي، كونراد دو مونفرا، في العام ١١٩٢، الذي أعلن نفسه ملكاً على القدس في العام نفسه، ومحاولة اغتيال البطل العربي صلاح الدين الأيوبي.

٣ — طرق الإرهاب التي اعتمدتها جماعة (الخنّاقين) في الشرق الأقصى، أو التي كانت تتجلى في خنق المعارضين والخصوم بأشرطة حريرية.

٤ — أعمال القرصنة البحرية ضد السفن التجارية، التي ازدهرت في القرن السادس عشر، وكانت ترمي، في معظم الأحيان، إلى الابتزاز والنهب.

٥ — وسائل الإرهاب التي مارستها بعض المنظمات والمذاهب العنصرية أو الفوضوية في الغرب، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى. ومن أشهرها:

(أ) المنظمة الإرهابية (كوكلاكس كلان) التي أنشأها، في العام ١٨٥٦، المزارعون البيض في جنوب الولايات المتحدة لإعلان رفضهم منح الحقوق المدنية للزنوج والملونين. وكان قانون المنظمة يقضي بشنق الزنجي على الشجرة.

(ب) الحركات الفوضوية التي دعت إلى تحقيق التحوّل السياسي والاجتماعي عن طريق العنف والإرهاب. ومن أشهرها حركة (العصابة السوداء) التي هاجمت الكنائس والشركات واغتالت، في فترة عشرين سنة، عشرة من رؤساء الدول والحكومات.

٦ — الأعمال الإرهابية التي لجأت إليها النقابات التي تبنّت الفوضوية، وأدّت في فترة ما بين الحربين، إلى قيام الاضطرابات وارتكاب الاغتيالات وإضعاف الحكم الديموقراطي في كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.

٧ — الإرهاب الذي مارسته الأنظمة الدكتاتورية في أوروبا، في الفترة نفسها، وحوّلته إلى عقيدة أو سياسة للدولة.

٨ — أعمال العنف التي ظهرت في بعض الأقاليم الرازحة تحت نير الاستعمار، أو الخاضعة للنفوذ الأجنبي. فقد نشأت فيها حركات ومنظمات سرية تدعو إلى نيل الاستقلال، ولو تمّ ذلك بالقوة، وإلى محاربة ممثلي السلطات الأجنبية وأعوانهم، ولو اقتضى ذلك اللجوء إلى الاغتيال.

الملاحظة الرابعة
تطور وسائل الإرهاب

اتّسعت، منذ الستينات من هذا القرن، دائرة العنف، وتخطّت الأعمال الإرهابية حدود الدولة، واستفاد أنصار الإرهاب من التطور العلمي والتكنولوجي الحديث فطوّروا وسائلهم وأدواتهم. فالإرهابي لم يعد يكتفي باستعمال السكين أو المسدس أو القنبلة، بل أصبح يعمد إلى المتفجرات على أنواعها، والسيارات المفخّخة، والرسائل والطرود الملغومة، والقنابل المحرقة، وخطف الطائرات والأشخاص، والسطو على الممتلكات.

الملاحظة الخامسة
أسباب الإرهاب

للإرهاب، مهما تختلف وسائله وأغراضه، أسباب سياسية واجتماعية ونفسية. ولا بد من تشخيص هذه الأسباب وتحديدها اقبل اتخاذ التدابير العملية الكفيلة بالقضاء على الإرهاب.

وجرت محاولات كثيرة، لم تُكلّل بالنجاح، لتحديد أسباب الإرهاب. ولعل الإخفاق يعود إلى التباين في تفسير عوامل الإرهاب، وفي الاتفاق على الحلول الناجعة. غير إن اللجنة الخاصة بموضوع الإرهاب الدولي التي كوّنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة، في العام ١٩٧٢، استطاعت عبر ورقة عمل قُدّمت إليها في العام ١٩٧٩، أن تُشخّص عدداً من الأسباب الرئيسية لظاهرة الإرهاب. فمن الأسباب السياسية ذكرت الورقة:

— الاستعمار والتشبّث بالسيطرة الاستعمارية.

— إنكار حق تقرير المصير للشعوب.

ـ حرب الإبادة.
ـ العدوان.
ـ استخدام القوة وانتهاك الاستقلال والسيادة والوحدة الإقليمية للدول.
ـ احتلال أراضي الغير والهيمنة على الشعوب.
ـ التدخل في الشؤون الداخلية للدول.
ـ الإرهاب الرامي إلى السيطرة على الشعوب وإجبار السكان على النزوح.
ـ الفاشية بأنواعها وسياسة التوسع.
ـ المنازعات بين الدول.
ـ الاضطهاد الديني وإثارة الفتن الطائفية وإشعال الحروب الأهلية.
ـ الاستبداد والظلم والقهر وكبت الحريات وانتهاك الحقوق.
ـ استخدام المرتزقة أو الاستعانة بالعصابات المسلحة للاعتداء على الغير.

وإلى جانب الأسباب السياسية حدّدت الورقة أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية، وهي:
ـ استمرار وجود نظام اقتصادي دولي جائر.
ـ الاستغلال الأجنبي للموارد الطبيعية الوطنية.
ـ الاستغلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي.
ـ انتهاك حقوق الإنسان والجماعات.
ـ الفقر والجوع والشقاء والضيم واليأس والإحباط.

وأضافت الورقة إلى هذه الأسباب عوامل شخصية ونفسية، منها:
ـ التهرب من تنفيذ حكم أو التزام معين.
ـ حبّ الظهور أو الشهرة.
ـ الاستخفاف بالأنظمة والعقوبات الدولية.
ـ الاختلال العقلي.
ـ الرغبة في الحصول على مساعدات مادية لصالح أفراد أو جماعات تعيش في ظروف معيشية صعبة.

الملاحظة السادسة
الإرهاب والتقدم التكنولوجي

ساعدت الاختراعات والتطورات العلمية الحديثة، إلى حد كبير، على اتساع نطاق ظاهرة الإرهاب، ومكّنت الإرهابيين من استخدام وسائل وأجهزة عصرية، دقيقة الهدف وصغيرة الحجم وضئيلة الثمن. ومن هذه الوسائل:



□ الإرهاب في لبنان.

ـ الطائرات القادرة على نقل الإرهابيين بسرعة من بلد إلى آخر، والتي أصبحت، هي نفسها، هدفاً سهلاً للاستغلال السياسي.
ـ البنادق المتطورة المجهزة بمنظار تلسكوبي.
ـ القنابل والمتفجرات الموقوتة والموجهة...

وليس من المستبعد أو المستغرب أن يتمكن الإرهابيون، في مستقبل قريب، من الاستيلاء على أسلحة نووية واستخدامها لتحقيق أغراض شخصية أو سياسية.

ويلاحظ الباحثون أن المجتمع الدولي أصبح اليوم، أكثر من الأمس، عرضةً لممارسات الإرهابية، وذلك بسبب التقدم التكنولوجي العملاق الذي تمخّض عن إنجازات ضخمة في حقل الصناعة والمجمّعات الصناعية. فالإرهاب الموجه إلى مصفاة نفط، أو محطة لتوليد الكهرباء، أو سدّ لاختزان المياه، أو مختبر للأبحاث، أو مجمع للطاقة النووية... أشد قسوة وخسارة من الإرهاب الذي يقتصر على إصابة سيارة أو تدمير بناية.

الملاحظة السابعة
الإرهاب جريمة دولية

الإرهاب الدولي باعتراف الجميع، جريمة دولية تستحق العقاب الشديد. فالقانون الدولي العام يُصنّف بعض الأفعال الجرمية في خانة الجرائم الدولية ويُقرّ لكل دولة، عند ارتكاب هذه الأفعال، بممارسة اختصاصها الجزائي تجاهها بصرف النظر عن جنسية الفاعل أو الضحية أو مكان الجريمة. فالقرصنة البحرية أو الجوية، مثلاً، جريمة دولية. وهناك اتفاقيات عديدة حول هذه الجريمة تلزم الدول الأطراف بممارسة صلاحياتها عند حدوثها.

ومع تطور العلاقات وتشابك المصالح واختزال المسافات ورسوخ وحدة المصير بين البشر والدول، اكتسبت الجريمة الدولية مفهوماً جديداً وشهدت تطبيقات جديدة. فالمفهوم التقليدي الذي يعتبر الجريمة الدولية إذا ارتكبت خارج حدود الدولة وأحدثت آثاراً دولية لم يعد كافياً أو صالحاً. إن القانون الدولي المعاصر ينظر اليوم إلى هذه الجريمة بمنظار إنساني أوسع يأخذ بعين الاعتبار كرامة الإنسان ومصلحة البشرية والنظام الاجتماعي للمجتمع الدولي. وعلى هذا الأساس يُعتبر خطف الطائرات، والإتجار بالرقيق والمخدرات، وتزوير العملات، وارتهان الأشخاص، وإبادة الجنس، جرائم دولية تسيء إلى المصلحة العليا والنظام الدولي للبشرية جمعاء.

الملاحظة الثامنة
التمييز بين الإرهاب والكفاح الوطني

هناك تمييز واضح بين الإرهاب الدولي والكفاح المسلح الذي تمارسه حركات التحرر الوطني في العالم. وقد نجحت الأمم المتحدة، منذ العام ١٩٧٠، في توضيح هذه المسألة. ففي هذا العام، أصدرت الجمعية العامة قراراً أكدت فيه شرعية نضال الشعوب من أجل تقرير مصيرها واسترداد حقوقها بكل الوسائل المتاحة، بما فيها الكفاح المسلح. وبعد عام، دعت الدول المحبة للحرية والسلام إلى تقديم المساعدات إلى هذه الشعوب. وحثّت، في قرارات أخرى، على معاملة



□ الإرهاب في فرنسا.

المشاركين في حركات المقاومة كأسرى حرب عند إلقاء القبض عليهم.

غير أن الأمم المتحدة رفضت، في بعض وثائقها المتعلقة بمكافحة الإرهاب، التمييز بين الأفعال الإرهابية والأفعال الصادرة عن الحركات الوطنية. فالإتفاقيات الدولية الخاصة بجرائم الخطف الجوي وارتهان الأشخاص لا تقيم وزناً لمسألة الدوافع والنيات.

الملاحظة التاسعة
صعوبة تعريف الإرهاب الدولي

لقد أخفقت جميع المساعي والمحاولات الرامية إلى وضع تعريف محدد للإرهاب الدولي. صحيح أن بعض الدول أو المنظمات



أو الجمعيات الدولية قد اقترحت أو تبنّت بعض التعريفات، ولكن هذه التعريفات لم ترْقَ إلى مستوى الاتفاق الدولي، وتعارض المصالح والمواقف والنظريات هو سبب الإخفاق. وعدم الاتفاق حالياً لا يعني استمرار الاستحالة. والسوابق تدعو إلى شيء من التفاؤل. ففي الماضي استطاعت دول العالم الاتفاق على تعريف إبادة الجنس والمتاجرة بالنساء والأطفال والمخدرات.. ولعل في اتساع ظاهرة الإرهاب الدولي، وتفاقم خطرها، وتهديدها للجميع دون استثناء، ما يدفع الدول إلى التفاهم والاتفاق حرصاً على مصلحتها العامة المشتركة.

ويرى معظم الباحثين أن هناك ثلاثة أساليب لتعريف الإرهاب:

— أسلوب يكتفي بتعداد الأفعال التي تشكل جريمة الإرهاب.

— وأسلوب يكتفي بإيراد عبارات عامة عن الإرهاب دون ذكر الأفعال التي تُشكل تلك الجريمة.

— وأسلوب ينطوي على عبارات عامة عن الإرهاب ولكنه يذكر بعض الأفعال الإرهابية على سبيل المثال لا الحصر.

والأسلوب الأخير هو الأفضل. ومن المستحسن، في حال الأخذ به، الاستعانة بمحكمة العدل الدولية، أو بأية هيئة قضائية خاصة أخرى، للفصل في مسألة التكييف القانوني لبعض الأفعال الإرهابية المختلف عليها.

الملاحظة العاشرة
مساعي المجتمع الدولي لمكافحة الإرهاب

كان الإرهاب وما زال موضع دراسات ومناقشات. وقد بذل المجتمع الدولي جهوداً جبارة للتوصل إلى وضع التدابير القادرة على مكافحته أو الحدّ من أضراره. وسارت هذه الجهود في اتجاهات ثلاثة:

أولاً ــ اتجاه وطني اعتمد على ما تتخذه الدول في تشريعاتها الوطنية من تدابير ووسائل لمكافحة الأفعال الإرهابية.

وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أوصت، في قرارها الصادر في ١٧/١٢/١٩٧٩، الدول الأعضاء بالامتناع عن تنظيم الأفعال الإرهابية في دولة أخرى أو التحريض عليها أو التغاضي عنها، وناشدتها الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية القائمة والمتعلقة. بمختلف جوانب مشكلة الإرهاب الدولي، ودعتها إلى اتخاذ التدابير الملائمة لجعل تشريعاتها الداخلية منسجمة مع تلك الاتفاقيات، وحثّتها على التعاون الوثيق في هذا المجال وتبادل المعلومات وإبرام المعاهدات الخاصة بتسليم الإرهابيين الدوليين ومحاكمتهم.

ومن اطلاعنا على مختلف التشريعات الوطنية حول الإرهاب الدولي نستنتج:

١ ــ إن هناك دولاً أقدمت على سنّ تشريعات جديدة، أو على تعديل تشريعات قديمة، بغية معالجة مشكلة الإرهاب.
٢ ــ إن هناك تفاوتاً واضحاً في الجهود الوطنية المبذولة لاتخاذ الإجراءات الفعالة لمنع الإرهاب أو محاربته.
٣ ــ إن هناك دولاً ما زالت ترفض استصدار تشريعات خاصة بالإرهاب، أو تمتنع عن الانضمام إلى الاتفاقيات الثنائية أو الجماعية الخاصة بالإرهاب، أو تتلكأ، في حال الانضمام إليها، في تنفيذ الالتزامات المترتبة عليها.

ثانياً ــ اتجاه إقليمي اعتمد على ما تتخذه المنظمات الإقليمية من تدابير ووسائل لمناهضة الإرهاب الدولي.

فعلى **الصعيد الأوروبي**، وقّعت في العام ١٩٥٩ اتفاقية استرداد بين الدول الأوروبية. وفي العام ١٩٧٦، وافقت لجنة الوزراء في مجلس أوروبا على استبعاد الجرائم الخطرة، مثل خطف الطائرات وأخذ الرهائن، من فئة الجرائم السياسية. وفي العام نفسه صدر الاتفاق الأوروبي لقمع الإرهاب وحدّد بعض الأفعال الإرهابية واعتبرها جرائم عادية. وفي العام ١٩٨٠، نظمت الجمعية البرلمانية في مجلس أوروبا مؤتمراً في مدينة (ستراسبورغ) تحت عنوان: «الدفاع عن الديموقراطية ضد الإرهاب في أوروبا». وصدر عن المؤتمر توصيات تدعو إلى وضع تعريف قانوني موحّد للإرهاب، ودراسة دور الثقافة والتربية ووسائل الإعلام في القضاء على الإرهاب، وإنشاء مركز دراسات وتوثيق خاص بشؤون الإرهاب.

وعلى **الصعيد الأمريكي**، وافقت منظمة الدول الأمريكية، في العام ١٩٧١، على اتفاقية خاصة بقمع أفعال الإرهاب ومعاقبة مرتكبيها، وخصوصاً أفعال الخطف والاغتيال والاعتداء على بعض الأشخاص الرسميين، وأفعال الابتزاز.

وعلى **الصعيد الافريقي**، دان ميثاق منظمة الدول الافريقية، في العام ١٩٦٣، جميع أشكال الاغتيال السياسي والأعمال التخريبية التي ترتكبها دولة افريقية ضد أخرى. وفي العام ١٩٧٣، وضعت المنظمة اتفاقية لاستئصال المرتزقة من افريقيا واعتبرت أن أفعالهم تشكل جرائم ضد السلام والأمن في القارة.

ولا نجد على **الصعيد العربي** اتفاقيات خاصة بالإرهاب الدولي، بل نجد محاولات لمكافحة الجريمة. فقد أنشأت جامعة الدول العربية المنظمة العربية للدفاع ضد الجريمة، التي تهدف إلى توثيق عرى التعاون بين الدول الأعضاء للوقاية من الجريمة ومعالجة آثارها في مجالات التشريع والقضاء والشرطة. وأنشأت الجامعة، كذلك، مجلس وزراء الداخلية العرب

لتوثيق التعاون العربي في مجال الأمن، ومكافحة الجريمة، ووضع سياسة جنائية وأمنية عربية، والعمل على تطوير القوانين المتعلقة بالمجرم والجريمة.

ثالثاً ــ اتجاه دولي اعتمد على ما تقوم به المنظمات والوكالات الدولية من جهود ومساع، وما تضعه من اتفاقيات، للقضاء على الإرهاب الدولي

وكانت عصبة الأمم قد اهتمت بموضوع الإرهاب الدولي على أثر اغتيال ملك يوغسلافيا ووزير الخارجية الفرنسية في العام ١٩٣٤، وشكلت لجنة من الخبراء لدراسة المسألة. وفي العام ١٩٣٧، وضعت اتفاقية لمنع الإرهاب ومعاقبة مرتكبيه. ولكن الاتفاقية لم تبرم إلّا من جانب دولة واحدة.

ومع تفاقم خطر الإرهاب في السبعينات، أوصت الأمم المتحدة الوطالات المتخصصة فيها بإيلاء الموضوع عناية خاصة واتخاذ التدابير اللازمة لمكافحته في حدود الصلاحيات التي تملكها.

وتجاوبت **منظمة الأونسكو** مع هذه التوصية وقررت معالجة الأسباب الكامنة وراء الإرهاب بالتدابير التالية:

١ ــ تعزيز السلام والأمن الدوليين عن طريق نشر البحوث المتعلقة بالسلام العالمي، وتوطيد أركان التفاهم الدولي، ودراسة دور القانون الدولي والمنظمات الدولية في أقامة نظام عالمي سليم.

٢ ــ حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية وصونها من كل انتهاك.

ولبّت **المنظمة الدولية للطيران المدني** نداء الأمم المتحدة وسارعت، عند استفحال خطر الخطف الجوي في الستينات، إلى إعداد ثلاث اتفاقيات دولية:

١ ــ اتفاقية طوكيو للعام ١٩٦٣، حول الجرائم وبعض الأفعال الأخرى التي ترتكب على متن الطائرات.

٢ ــ اتفاقية لاهاي للعام ١٩٧٠، حول قمع الاستيلاء غير المشروع على الطائرات.

٣ ــ اتفاقية مونتريال للعام ١٩٧١، حول قمع الأفعال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني.

وقد وُجّهت إلى **اتفاقية طوكيو** عدة انتقادات نشير إلى أهمها:

١ ــ أنها تكتفي بالنص على الجريمة دون أن تقرن ذلك بالعقوبات الملائمة، ودون أن تفرض على الدول المتعاقدة أي التزام بمعاقبة الخاطفين.

٢ ــ أنها لا يمكن أن تطبق على جميع حالات اختطاف الطائرات.

٣ ــ أنها تتضمن نصوصاً تتّسم بالغموض أو العمومية بحيث يمكن التنصّل بسهولة من تطبيقها أو التحايل عليها.

٤ ــ أنها لا تضع قاعدة لسلّم الأولوية في الاختصاص.

٥ ــ أنها تطرح مبدأ التسليم أو الاسترداد دون أن تنظم كيفية تطبيقه.

ووُجّهت إلى **اتفاقية لاهاي**، كذلك، عدة انتقادات، أهمها:

١ ــ أنها تأخذ بنظام تزاحم أو تواكب الاختصاصات.

٢ ــ أنها لا تحدّد عقوبة الخاطف، ولا تحدد للدول الأطراف فترة زمنية للقيام بالتزاماتها.

٣ ــ أنها لا تشير مطلقاً إلى القاعدة التي تحرّم تكرار العقوبة بالنسبة إلى الجرم ذاته.

٤ ــ أنها لا تتحدث مطلقاً عن صلاحيات قائد الطائرة عند وقوع الجرم.

٥ ــ أنها لا تنص على أية حصانة قضائية لصالح الأبرياء الموجودين على متن الطائرة المخطوفة الذين يضطرون إلى الهبوط في دولة لا يرغبون في الدخول إليها.

٦ ــ أنها لا تعالج بعض الجرائم التي تكرر وقوعها، والتي لا يمكن إدخالها في إطار جريمة الاستيلاء غير المشروع على الطائرات، مثل الجرائم المرتكبة ضد الطائرات الجاثمة في المطارات، أو ضد منشآت الطيران.

وتعرضت **اتفاقية مونتريال**، أيضاً، لانتقادات مماثلة، ولم يشترك في التوقيع عليها إلّا عدد ضئيل من الدول. ولعل سبب ذلك يعود إلى اعتقاد الدول بأنه من الأفضل إسناد مهمة كبح

عمليات الاختطاف الجوي وتدمير الطائرات إلى التشريعات الوطنية بدلاً من الاتفاقيات الدولية. ولهذا، فإن دولاً مثل فرنسا وإسبانيا والمكسيك قد تخلّفت عن توقيع الاتفاقية، مفضّلة إصدار تشريعات وطنية تعالج المشكلات التي تثيرها عمليات الخطف. ومع ذلك فإن الكثيرين يشكّون في مقدرة التشريعات الوطنية، في هذا المضمار، على معالجة مشكلات الخطف الجوي بشكل حاسم ونهائي.

وبعد توقيع اتفاقية مونتريال بعام واحد حصلت حادثة ميونيخ فشنّت وسائل الإعلام الغربية، بتحريض من الصهيونية العالمية، حملة شعواء على العرب. واهتمت الأمم المتحدة بالأمر وأدرجت في جدول أعمال الجمعية العامة للعام ١٩٧٢ بنداً حول التدابير الرامية إلى منع الإرهاب الدولي الذي يُعرّض للخطر أرواحاً بشرية. وشكلت لجنة خاصة لدراسة الموضوع من جوانب ثلاثة: تعريف الإرهاب الدولي، ومعرفة الأسباب الكامنة وراءه، وتحديد التدابير الكفيلة بمكافحته.

وعقدت اللجنة عدة اجتماعات خلال السنوات اللاحقة دون التوصل إلى اتفاق دولي حول المشكلة. وسبب الخلاف يكمن في تباين الاتجاهات. فهناك فريق، في طليعته إسرائيل وأمريكا وبعض الدول الغربية، يصرّ على وصف الأعمال التي تنجزها الحركات التحررية في العالم بالإرهاب، في حين أن هناك فريقاً آخر ممثلاً بدول العالم الثالث يُبعد هذه الصفة عنها ويعتبر أن هذه الحركات الوطنية تمارس حقاً مشروعاً تُقرّبه وتباركه المواثيق والقرارات الدولية. وما زال بند (الإرهاب الدولي) يتصدر، منذ ذلك التاريخ، جدول أعمال الجمعية العامة لكل دورة سنوية.

وخلال هذه الفترة تمكنت الأمم المتحدة من إنجاز اتفاقيتين دوليتين: الأولى، في العام ١٩٧٣، وهي خاصة بمنع ومعاقبة الجرائم المرتكبة ضد الأشخاص المحميّين دولياً، بمن فيهم الممثلون الدبلوماسيون. والثانية، في العام ١٩٧٩، وهي خاصة بمناهضة ارتهان الأشخاص.

والاتفاقية الثانية تُشكل خطوة متقدمة على طريق مكافحة الإرهاب وتنطوي على تطور كبير في هذا المجال لأنها تعترف في ديباجتها بشرعية الكفاح الذي تلجأ إليه حركات التحرر الوطني من أجل تقرير مصيرها واسترداد حقوقها.

الخاتمة

لقد بذل المجتمع الدولي جهوداً كبيرة في سبيل وضع إطار قانوني قادر على قمع الإرهاب الدولي ومكافحة موجة العنف التي تجتاح العالم. وأسفرت هذه الجهود، كما رأينا، عن ظهور عدة اتفاقيات دولية. وهذه الجهود تطرح سؤالين مهمين:

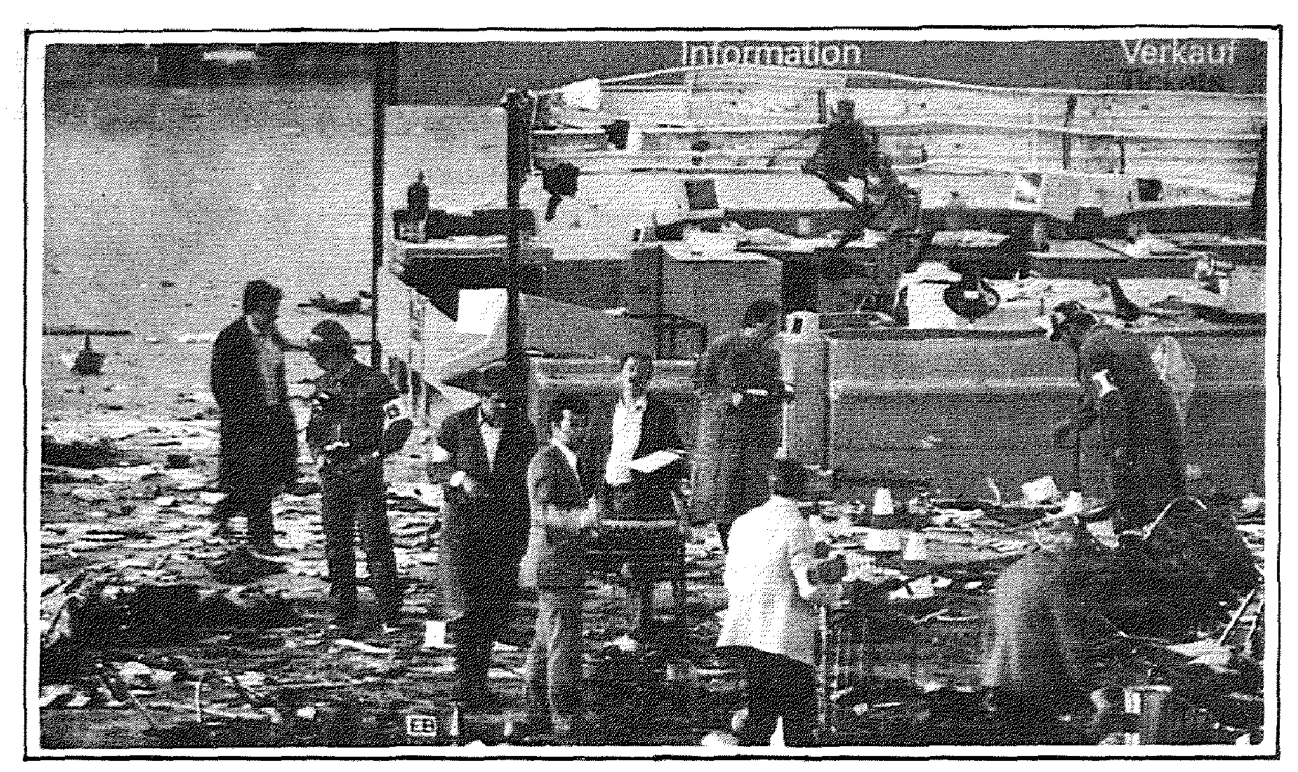
السؤال الأول هو: هل باستطاعة الاتفاقيات الدولية القضاء كلياً على ظاهرة **الإرهاب الدولي**، أو على الأقل كبح جماحها؟

إن فاعلية الاتفاقيات، أو نجاحها، أو مصيرها، يتوقف في الواقع وإلى حد بعيد، على مقدرة المجتمع الدولي على حل المشكلات الثلاث التالية:

١ ــ **مشكلة التسليم**: فقد تركت معظم الاتفاقيات الدولية للدولة التي تأسر الإرهابي حرية التسليم أو المحاكمة. وأثبتت الحوادث أن الدولة ترفض التسليم عادةً وتُفضّل الاعتماد على سلطاتها القضائية لمقاضاة الإرهابيين. وبما أن الإرهابي يبحث دائماً عن الدولة التي تتعاطف مع اتجاهاته السياسية للجوء إليها والتخلص من العقوبة، فإن الرادع الذي بنت الاتفاقيات عليه الآمال ينهار هنا.

وقد نسارع إلى التأكيد على أن الحل يكمن في اشتراط التسليم الفوري. ولكن ذلك يصطدم بالحق الذي ما زالت الدولة تحتفظ به لنفسها وتحرص عليه وتعتبره من أبرز مبادىء سيادتها ومظاهر استقلالها، وهو حقها في منح اللجوء السياسي لمن تشاء من الفارين من وجه العدالة.

٢ ــ **مشكلة الصيغة السياسية**: فإن الغالبية الساحقة من دول العالم ترفض تسليم اللاجئين إليها بعد ارتكابهم الجرائم السياسية في بلد آخر. والقانون الدولي يُقرّ مبدأ عدم تسليم المجرمين السياسيين. وتحرص بعض الدول على النص على هذا المبدأ في دساتيرها أو معاهداتها الخارجية.



□ **الإرهاب في المانيا.**

ونلاحظ أن مفهوم الجرم السياسي فضفاض ومطاط وقابل للتأويل والتفسير. وللدولة مطلق الحرية في تقدير الجرم وإضفاء الصفة السياسية عليه. وتاريخ العلاقات الدولية حافل بالمنازعات حول هذه المسألة. وأتيح لمحكمة العدل الدولية إصدار أحكام فيها (مثلاً، قضية حق اللجوء السياسي بين كولومبيا والبيرو في العام ١٩٥٠ ــ ١٩٥١).

٣ ــ مشكلة الإلزام والعقوبة في القانون الدولي: وبعد كل اتفاقية يطرح السؤال التالي: هل ستتقيد الدول الأطراف بمضمونها؟ وإذا رفضت إحدى الدول الالتزام بما قررته الاتفاقية، فما هي الوسائل والتدابير المجدية المتوافرة لدى المجتمع الدولي لإرغامها على التنفيذ؟

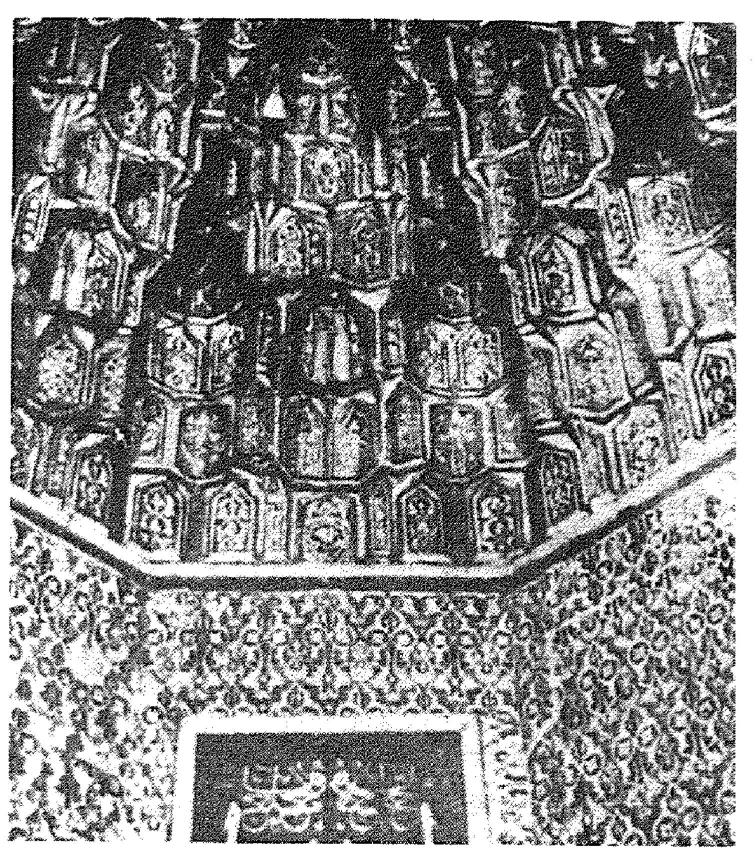
قد يقال بوجوب رفع الأوامر إلى مجلس الأمن الدولي القادر على فرض عقوبات سياسية وعسكرية واقتصادية على الدول المخالفة. ولكن المجلس مكون من ١٥ دولة، من بينها الدول الخمس الكبرى التي تتمتع بحق النقض (الفيتو). وقد يحول استعمال هذا الحق، ولو بشكل اعتباطي، دون الموافقة على فرض أية عقوبة على الدولة التي تخالف أحكام الاتفاقيات الدولية. وسجل مجلس الأمن حافل بالأمثلة والشواهد في هذا الحقل.

والسؤال الثاني، المهم والأهم، الذي تطرحه الاتفاقيات الدولية المتعلقة بقمع الإرهاب هو: هل باستطاعة التدابير القانونية، الداخلية والدولية، حل المشكلة؟

لقد لاحظنا أن هذه الاتفاقيات مُنيت بالفشل حتى الآن. ويبدو أنها ستبوء بالفشل ما دام المجتمع الدولي يتهرب من تحمل مسؤولياته تجاه بعض المشكلات الدولية الملحة. إن هناك شعوباً تعاني أنواعاً شتى من الظلم والقهر والكبت. وقد اتبعت كل الوسائل المشروعة للمطالبة بحقوقها. وعندما عجز المجتمع الدولي عن إنصافها وقابل مطالبها بالإهمال قررت اللجوء إلى أساليب العنف التي بات هذا المجتمع يشكو منها.

إن ما سُمّي أحياناً بالإرهاب الدولي ليس، في الحقيقة، سوى دفاع مشروع عن النفس، يعترف به القانون الدولي المعاصر. وعلينا، قبل أن نتسرع ونصف عملاً من أعمال العنف بالإرهاب، أن نتعرف إلى مسبباته، ففيها تكمن الجذور الخبيثة التي ينبغي للمجتمع الدولي استئصالها.



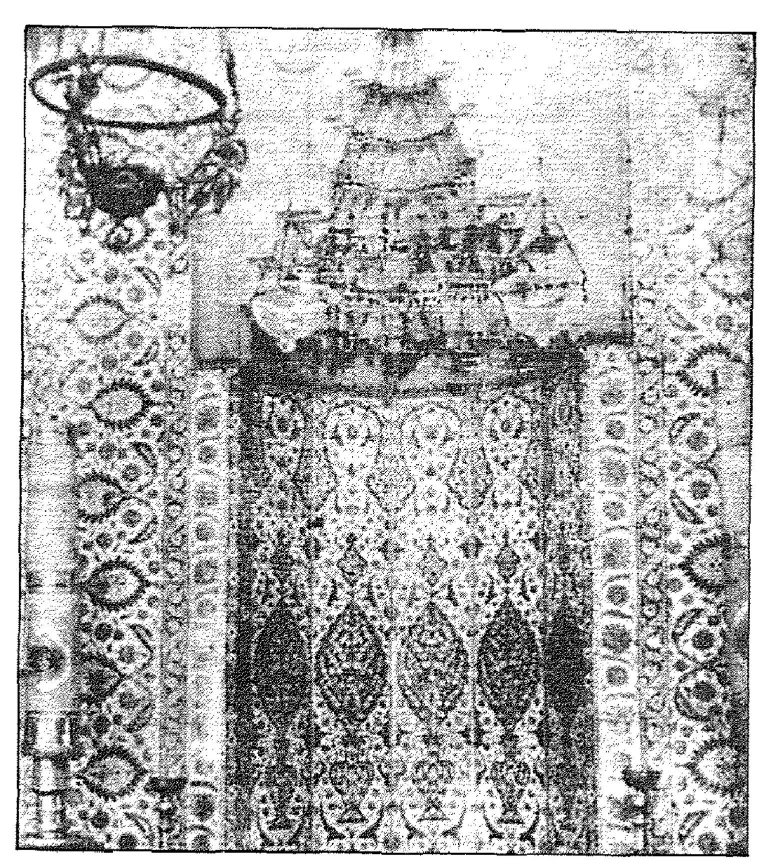


□ زخرفة المقرنص، كما تبدو في محراب الجامع الأخضر في بروسة.

أصبح السلطان مراد الثاني سلطاناً (١٤٢١ ــ ١٤٥١م)، وقد كان محباً للعلم، مشجعاً للفن، ويعتبر عصره العصر الذي بدأت فيه الثقافة العثمانية القديمة التي كانت تقوم على أكتاف رجال الدين تنكمش لكي يحل محلها اتجاه ثقافي جديد، إذ بدأ يظهر نثر وشعر شعبي باللغة التركية العثمانية مثل قصة «المحمدية» التي نظمها الشاعر أوغلوا سنة ١٤٤٩م. ولكن يلاحظ أن قدامى المثقفين الذين كانت لغتهم المفضلة هي الإيرانية ــ نظروا إلى هذا الاتجاه الثقافي الجديد نظرة احتقار ولم يتعاونوا معه.

وتتجلى عناية هذا السلطان بالفن فيما خلفه وراءه من عمائر وتحف، أما العمائر فمن أهمها الجامع الأخضر الذي بناه في مدينة بروسه سنة ١٤٢٤م ومسجد المرادية الذي شيده في أدرنة سنة ١٤٣٣م. والأول منهما يمتاز بمحرابه الجميل ذو الزخارف النباتية التي يبدو فيها التأثير الصيني ونقرأ في أعلاه عبارة: «من عمل أساتذة تبريز» أي أن الإيرانيين قد أسهموا في إنشائه، ويستلفت النظر في هذا المسجد أمران لهما أهميتهما: الأول أن بابه يعتبر أقدم تحفة خشبية عثمانية. والثاني أنه قد استغنى فيه عن الأعمدة ذات التيجان البيزنطية التي كانت مألوفة في المساجد السابقة واستخدمت أعمدة لها تيجان من المقرنص[1]. أما المسجد الثاني فيمتاز بقراميده (Tiles) الجميلة ذات اللونين الأزرق والأبيض وذات الزخارف النباتية المستلهمة من الزخارف الإيرانية في العصر التيموري.

أما التحف التي وصلت إلينا من عصر هذا السلطان فمن أحسنها ما يتصل بفنون الكتاب



□ زخرفة المقرنص كما تبدو في محراب مسجد رستم باشا في اسطنبول.

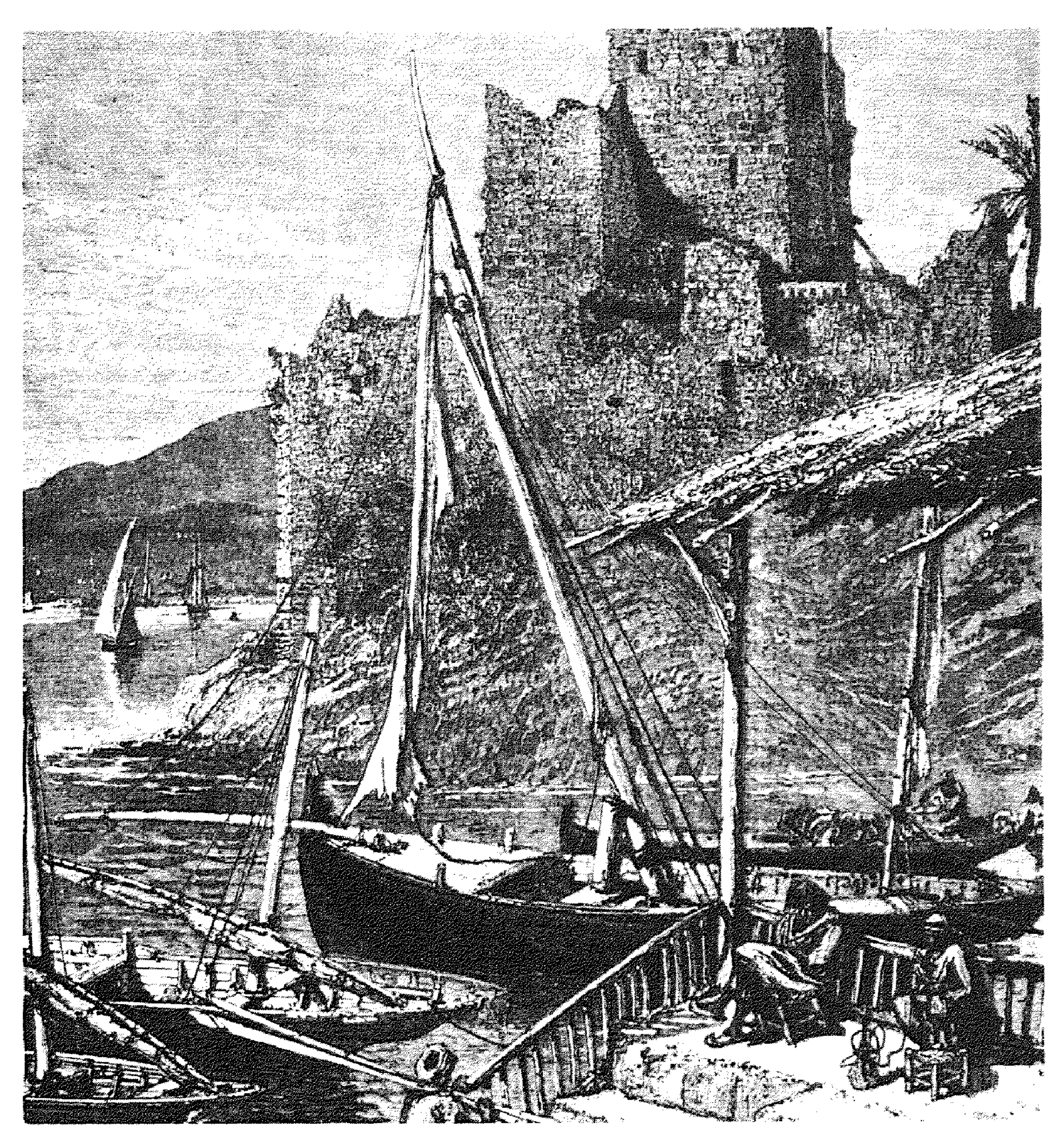
إذ وصل إلينا من هذا العصر مخطوطان موجودان في مكتبة متحف طوبقابو، يزدان كل منهما بزخارف مستوحاة من الفن الصيني. وقد سما فن التذهيب في هذا العصر إلى درجة عظيمة ويكفي أن نشير إلى مخطوطة في الطب عنوانها (تفاريح الإرواء» قد أبدع المذهب أحمد بن حاج محمود اق سراي (وهو من أبناء قونية) في تذهيبها فبدت تحفة فنية تملأ أنظار العين بجمالها.

الهوامش:

(١) زخرفة المقرنص لم تكن معروفة قبل الإسلام، وهي تعرف عند مؤرخي الفن من الغربيين باسم Stalactite، وقد لعبت دوراً هاماً في الفن الإسلامي واصبحت من ابرز خصائص هذا الفن. وقد نبتت فكرتها من الكوة Niche التي كانت تشيد فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبة، وبواسطة تلك الكوى الأربع يستطيع البناء أن يوجد سطحاً يمكن للقبة ان تستقر عليه. وقد كانت هذه الكوى مستعملة قبل الإسلام ولكنها كانت عاطلة من الزخرف الأمر الذي لم يستطع البناء المسلم ان يصبر عليه طويلاً، فما كاد يتهذب ذوقه وترتقي ملكته الفنية حتى اخذ يعدل في شكل تلك الكوى ويعقد في مظهرها، نقسمها إلى كوى صغيرة متعددة، وتفنن في وضع تلك الكوى الصغيرة داخل الكوة الكبيرة وفي تنسيقها وفي تزيينها حتى بدت قطعاً من الفن الجميل كلما تأملت فيها غمرتك بلذة روحية، وزادتك إيماناً بعظمة الفن الإسلامي، وقد شاء لهم خصبهم الفني الا يقفوا بالمقرنصات عند حد وظيفتها المعمارية باستعمالها تحت القباب بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الفتحات من أبواب ونوافذ، وتزيين العقود والاعمدة، والمداخل والزوايا وكل مكان في البناء يصلح لقبول هذا العنصر الزخرفي.

اليقظة العلمية في بيروت العثمانية

د. حسان حلاق



بيروت في أوائل القرن الحالي من كتاب (Wortabet, Syria and the Syrian, Ip. 67) للفنان وودورد (Woodward)

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تستضيف على صدر صفحاتها ابتداء من هذا العدد الدكتور حسان حلاق، الذي سيمد المجلة بمجموعة دراسات عن تاريخ وتراث بيروت العثمانية، بما فيه سورها وأبوابها العتيقة وأبراجها وأسواقها وشوارعها وساحاتها وعاداتها وتقاليدها، وبمافيه دراسة عائلاتها وواقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتراثي عامة. وفي هذه الحلقة يجول د. حلاق في الحياة العلمية في بيروت العثمانية.



شهدت بيروت حركة علمية وثقافية وأدبية منذ تاريخها القديم، سيما في العهد الروماني، وتكفي الإشارة إلى مدرستها الشهيرة مدرسة الحقوق التي دمرها الزلزال فيما دمر من معالم بيروت. ويكفيها فخراً أبجديتها التي عمّت العالم فنشرت مع شقيقاتها الفينيقيات الحرف والعلم. وقد أشار الأب لويس شيخو إلى أن بيروت أصبحت من حواضر البلاد، وجمعت في ربوعها ضروب الرقي والحضارة. والحقيقة فقد شهدت بيروت وبلاد الشام بعد موقعة اليرموك عام ٦٣٦م، وفادة الكثير من العلماء المسلمين الذين تفاعلوا مع علماء النصارى في المسائل العلمية والفلسفية والدينية، ومن الوافدين على بيروت في تلك الفترة المبكرة: أبو الدرداء، بشير بن سعد، أبو ذر الغفاري، سلمان الفارسي، آمر بيروت وواليها الفقيه أيوب بن خالد الجهني الخزاعي الذي تتلمذ على الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام ردحاً طويلاً، وقد ارتبط اسم بيروت ولا يزال باسم وعِلم الإمام الأوزاعي إمام بيروت وبلاد الشام والذي أفتى في سبعين الف مسألة.

ومن علماء بيروت في العهدين الأموي والعباسي، عمر بن أحمد بن أسد البيروتي، والعباس بن الوليد البيروتي، والهقل بن زياد البيروتي.

ومن الأهمية بمكان القول بأن الزوايا والمساجد والكتاتيب والأديرة والكنائس استمرت لفترات طويلة مراكز دينية وتعليمية في آن واحد. وكان الناس يرسلون أولادهم لتلقي مبادىء القراءة والكتابة، وتعلم القرآن الكريم والأنجيل عند شيوخ الزوايا والكتاتيب وقساوسة ورهبان الأديرة.

بالإضافة إلى ذلك فقد تنافست بيروت مع بقية المناطق اللبنانية التي انتشرت فيها المدارس مثل مدرسة عينطورة التي أسسها الأب بطرس مبارك عام ١٧٣٤م، ومدرسة جزين التي أسسها محمد مكي بعد عام ١٢٧٠م، ومدارس جبل عامل التي أنشأها علي عبد العالي الميسي في منتصف القرن السادس عشر، والسيد موسى الحسيني الأمين الذي أسس مدرسة في أواخر القرن الثامن عشر، والبطريرك يوحنا مخلوف الذي أسس مدرسة سيدة حوقة عام ١٦٣٣، وقد تعددت وازدادت المدارس في العهد العثماني ومن اهمها مدرسة عين ورقة.

وبدأ التنافس العلمي في بيروت وبقية المناطق يأخذ طابع التفاعل والتكامل، حتى أن علماء المسلمين لم يجدوا مانعاً من أن يفردوا مكاناً خاصاً في باطن بيروت العثمانية قرب جامع النوفرة (جامع الأمير منذر) للمعلم الياس اده الشاعر، ليبحثوا معه الأمور العلمية والفقهية ويتناشدون الأشعار. ولم يجد النصارى مانعاً من أن يتتلمذ أبناؤهم على علماء المسلمين. فمن المعروف أن الفقيه اللبناني الشيخ بشارة الخوري (١٨٠٥ ـ ١٨٨٦) كان تلميذاً من تلامذة مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد افندي الأغر (١٧٨٣ ـ ١٨٥٨) كما تتلمذ على الشيخ يونس البزري والشيخ محمد عرابي. وكان الفقيه الشيخ بشارة قد لقب باسم مفتي النصارى، بعد أن أصبح عالماً من علمائهم.

وبالرغم من أن البعض يرى بأن بيروت العثمانية كانت تحيا حياة التخلف والركود والانحطاط العلمي، غير أن الوقائع العلمية والثقافية تناقض هذا القول، وقد ثبت من خلال عدد الجامعات والمدارس والعلماء والمستشفيات والأطباء والجمعيات والمخطوطات والكتب

والصحف وسواها من مظاهر اليقظة العلمية في بيروت العثمانية، بأن بيروت كانت تذخر بالحياة العلمية والثقافية.

التعليم والمدارس في بيروت العثمانية

وقد أصدرت الدولة العثمانية سيما في القرن التاسع عشر بعض التنظيمات التي تختص بوجوه التعليم وإنشاء المدارس. ففي عام ١٨٥٢ انشأت مكتباً خاصاً لوضع المناهج والكتب المدرسية التي كانت تحتاج إليها المدارس والمعاهد.

وفي النظام الأساسي العثماني الصادر عام ١٨٧٦، جعلت الدولة العثمانية التعليم الابتدائي إجبارياً على كل فرد من أفراد العثمانيين. وانعكس أثر هذا النظام على بيروت المحروسة وجبل لبنان والولايات العثمانية، وشجع ذلك على إقامة المزيد من المدارس والمعاهد من قِبَل العثمانيين والرعايا المحليين والمؤسسات الإرسالية الأجنبية.

وأشار السلطان عبد الحميد الثاني في أحد خطاباته أمام مجلس المبعوثان (النواب) إلى ما نصه «من واجبنا أن نعير انتباهنا لتثقيف عقول شعوبنا، مع تأكدنا بأن الأمم الأوروبية قد حازت الازدهار الذي تنعم به من جراء التعليم العام، فإننا نتمنى أن يتمكن أبناء رعيتنا إلى أية طبقة انتموا من الاستفادة من حسنات العلم، فإننا أصدرنا مرسوماً بإنشاء مدارس تصبح فيها الثقافة والتربية بالتساوي في متناول الجميع».

وقد أشار السلطان عبد الحميد الثاني إلى ارتفاع عدد المدارس وأوضاعها في عهده، ومما قاله في مذكراته «لقد ارتفع عدد المدارس منذ اعتليت العرش إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه (٢٠٠,٠٠٠) مدرسة ومع ذلك فلا تفي هذه المدارس بالحاجة، والمدارس الثانوية عندنا على مستوى عال من المناهج، تعترف به الأوساط العلمية، ونحن بحاجة إلى فتح مدارس إعدادية تهيء الطلاب لدخول مؤسسات علمية ليتخرج منها مهندسون ومعماريون وفنيون».

هذا وكان سليم علي سلام نائب بيروت في مجلس المبعوثان قد طالب الحكومة العثمانية بتطوير التعليم والاقتداء بالمدارس الأجنبية، وطالب بزيادة الإنفاق على وسائل المعارف بحيث تزيد على (٤٥٠) ألف ليرة عثمانية، ومما قاله: «إنني أقول لكم بالنيابة عن الذين انتخبوني أنهم أرسلوني لأقبل كل ضريبة تفرض للإنفاق على المعارف». وهذا دليل واضح على إقبال البيارتة وشغفهم بالتعلم والعلوم.

وكانت اليقظة العلمية في بيروت العثمانية قد بدأت بالتفتح بظهور مدارس عديدة نذكر منها على سبيل المثال: المدرسة البطريركية الكاثوليكية التي أنشأها البطريرك غريغوريوس يوسف في منطقة زقاق البلاط عام ١٨٦٥، وكانت منافسة لمدرسة الحكمة والثلاثة أقمار، والمدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٢ في منطقة زقاق البلاط أيضاً، ومدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس التي انتقلت من سوق الغرب إلى بيروت عام ١٨٦٦، ومدارس راهبات مار يوسف، ومدارس الفرير التي أنشئت عام ١٨٩٧، ومدرسة الحكمة لمؤسسها المطران يوسف الدبس بين عامي ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥، ومدرسة العميان التي أنشأتها مس طومسون في بيروت لتعليم العميان قراءة التوراة، ومدرسة زهرة الإحسان التي أسستها السيدة أملي سرسق للبنات الأرثوذكس عام ١٨٨٠.

ومن المدارس الهامة في بيروت، والتي أحدثت نقلة نوعية في حياة المسلمين والبيارتة، هي مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت التي تأسست عام ١٨٧٨م ــ غرة شعبان ١٢٩٥هـ ، والمدرسة الإسلامية الحديثة، ومدرسة الإمام الأوزاعي، ومدرسة الشيخ عبد الباسط الأنسي، والمدرسة الرشيدية، ومدرسة زاوية الشهداء، ومدرسة النوفرة، ومدرسة الشيخ علي الملا، ومدرسة الشيخ محمد المجذوب، والمدرسة السورية الإسلامية لمؤسسها الشيخ سليم محمد المغربل، والمدرسة القادرية لمؤسسها الشيخ عمر البربير، والمدرسة الوطنية، ومدرسة الإخلاص، والمدرسة الحميدية الأهلية، والمدرسة الأدبية لمؤسسها الشيخ مصباح شبقلو، المدرسة السلطانية التي أشرف على بنائها



□ محمد علي القباني مفتش المعارف في ولاية بيروت (١٩٢٥)



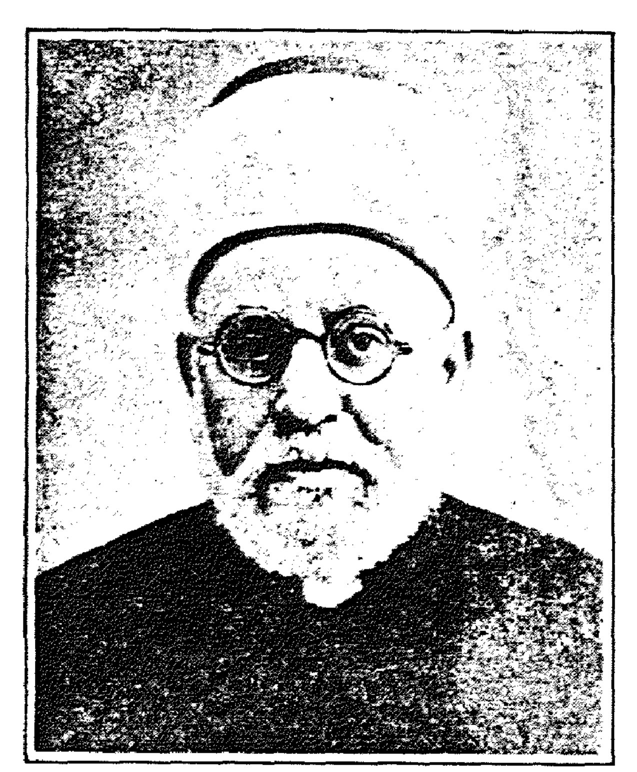
□ السيدة ابتهاج قدورة في شبابها أول مسلمة خريجة المدرسة الأميركية في بيروت تخرجت عام (١٩٠٩).

الشيخ عبد القادر قباني، مدرسة لجنة التعليم ١٩٠٩، دار العلوم ١٩١٠، المكتب العسكري الحكومي ١٨٦٠، المكتب الإعدادي، كلية الحقوق ١٩١٣ (نقلت إلى دمشق بعد إعلان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤) وكانت الدولة العثمانية تنوي إنشاء كلية للطب لولا وجود مثلها في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت، لذا رأت أن دمشق بحاجة إلى الكلية أكثر من بيروت. ومن المدارس البيروتية أيضاً:

مدرسة سكزنجي نمونه أي المدرسة الابتدائية النموذجية الثامنة ١٩١٣، التابعة للمكتب السلطاني (وموقعها اليوم ثانوية المقاصد للبنات في الباشوراء) مدرسة الشيخ يوسف الحلواني في رأس بيروت، مدرسة (كلية) الصنائع والتجارة الحميدي، مدرسة المعارف، المدرسة التوفيقية لمؤسسها الشيخ محمد توفيق خالد، المدرسة العلمية لمؤسسها الشيخ عبد الرحمن سلام، ومدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهري المعروفة باسم الكلية العثمانية والتي أحدثت تغييراً أساسياً في بنية المجتمع التربوي في بيروت ولبنان والعالم العربي، وغيرها الكثير من المدارس الوطنية والأجنبية. وكانت لغات التدريس في مدارس بيروت وجبل لبنان هي اللغات: العربية، التركية، الفرنسية، الأنجليزية، الايطالية، الألمانية وسواها.

وقد وصف عبد الرحمن سامي بك في كتابه «القول الحق في بيروت ودمشق» المدارس القائمة في بيروت العثمانية: «... وقد صارت المدارس الداخلية في بيروت أشهر من نار على علم، كلها تقبل التلامذة بأجور قليلة، وتعلم وتعتني بصحتهم وسلامتهم، ومنها من ترسل مندوباً من قبلها كل سنة إلى البلاد المجاورة لأخذ تلامذة إليها...».

هذا وقد بلغ اهتمام المسلمين في بيروت بالعلم والعلماء وطلاب العلم أن خصصوا أوقافاً خيرية خاصة تتضمن أملاكاً وأراضي عديدة يعود ريعها وخيراتها على العلم والعلماء ولتنفق في وجوه التحصيل العلمي، مثال وقف العلماء، وقف طلاب العلم، وقف المكتبات وسواها. ويكفي الإشارة إلى أن «وقف العلماء» اليوم يعتبر من أغنى الأوقاف الإسلامية على الإطلاق.



□ العلامة الشيخ محمد البربير.



□ الدكتور عبد الرؤوف حمادة.

هذا وقد عملت الدولة العلية العثمانية على تشكيل مجلس معارف لولاية بيروت لتنظيم الأوضاع العلمية والتربوية والتعليمية في الولاية. وقد ضم هذا المجلس: الشيخ إبراهيم الأحدب، عزتلو حسن بيهم، مكرمتلو الشيخ أحمد عباس الأزهري، رفعتلو عبد الله بيضون، الدكتور أديب قدورة، عزتلو يوسف عرمان، خليل سركيس، إبراهيم اليازجي، سليم الجلخ، بيجو أفندي.

الطباعة في بيروت

ومن الأهمية بمكان القول بأن بيروت العثمانية عرفت الطباعة منذ عام ١٧٥١، حيث انشأت طائفة الروم الأرثوذكس بمسعى الشيخ يونس نقولا الجبيلي المعروف بأبي عسكر، مطبعة القديس جاورجيوس. ومن مطابع بيروت المعروفة أيضاً المطبعة الأميركية التي نقلت من مالطة إلى بيروت عام ١٨٣٤، بالإضافة إلى المطبعة الكاثوليكية ـ اليسوعية في بيروت التي تأسست عام ١٨٤٧، ومطبعة حديقة الأخبار ١٨٥٧، ومطبعة المعارف ١٨٦٧، والمطبعة الأدبية ١٨٧٤، المطبعة اللبنانية ١٨٦٩، المطبعة السليمية ١٨٧٢، المطبعة العلمية ١٨٩٠، مطبعة جمعية الفنون الإسلامية ١٨٧٤، مطبعة بيروت ١٨٨٥، مطبعة ولاية بيروت الرسمية ١٨٨٥، ومطبعة الفوائد ١٨٩١، المطبعة الأنسية ١٨٩٥، ومن مطابع بيروت مطبعة النفائس والمطبعة الأهلية والنهضة وسواها من المطابع البيروتية واللبنانية.

وكانت الطباعة قد انتشرت في الدولة العثمانية ابتداء من عام ١٧٢٦ عندما أصدر السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠) فرماناً أمر فيه بإنشاء مكتب للطباعة في الآستانة بعد إصدار فتوى من شيخ الإسلام تجيز وتسمح بالطباعة باستثناء القرآن الكريم خوفاً من التحريف. وقد ازداد تأثر بيروت والبيارتة بالأصلاحات العثمانية التربوية والتعليمية سيما في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) الذي اهتم بالتعليم اهتماماً بالغاً بإرسال البعثات العلمية إلى الخارج وإنشاء مدارس الطب والهندسة والترجمة.

البعثات العلمية

يعتبر الشيخ العلامة محمد الحوت



الجامعة الاميركية في بيروت ويبدو مرصد الجامعة على الجبس.

(١٧٩٥ ــ ١٨٦٠) من أوائل البيارتة الذين رحلوا عن بيروت طلباً للعلم والفقه، وذلك منذ أوائل القرن الثامن عشر، ومنهم العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٥ ــ ١٩٤٤) الذي سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف، والعلامة الشيخ أحمد عباس الأزهري (١٨٥٣ ــ ١٩٢٧) الذي سافر إلى مصر أيضاً ليتزود بالعلوم من الأزهر الشريف، ومنهم أيضاً نقيب الأشراف الشيخ عبد الباسط الأنسي (١٨٦٧ ــ ١٩٤٠) والعلامة الشيخ حسن المدور (١٨٦٢ ــ ١٩١٤) وغيرهم الكثير.

واتجه قسم كبير من البيارتة واللبنانيين للتعلم في القدس الشريف واستانبول وباريس منهم على سبيل المثال: عبد الغني العريسي، محمد محمصاني، توفيق فايد، شارل دباس، شكري غانم، ندره مطران، جميل معلوف، عبد القادر كيلاني، محمد جميل دوغان، يوسف روكز، الأمير حسن حسان الأيوبي، محمد أبو الفضل قواص، الأمير أحمد الشهابي، الأمير بهجت الشهابي، منيف لطيف، بدر الدين الرافعي وسواهم الكثير.

الصحافة في بيروت

ومن وسائل تطور الحياة الثقافية والعلمية في بيروت العثمانية مئات وآلاف الكتب المطبوعة المتنوعة في اختصاصاتها ومجالاتها، ومئات الصحف والدوريات الصادرة فيها. ومن يطلع على كتابي: الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ويوسف أسعد داغر: قاموس الصحافة اللبنانية، يدرك كم هي أعداد الصحف الصادرة في بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكنت أول صحيفة بيروتية هي صحيفة «حديقة الأخبار» لمؤسسها خليل جبرائيل الخوري عام ١٨٥٨. ومن الصحف البيروتية الأخرى على سبيل المثال لا الحصر: «نفير سوريا» لمؤسسها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٠، «ثمرات الفنون» لمؤسسها الشيخ عبد القادر قباني عام ١٨٧٥، «لسان الحال» لمؤسسها خليل سركيس عام ١٨٧٧، «بيروت» لمؤسسها محمد رشيد الدنا عام ١٨٨٦، «بيروت الرسمية» لمؤسسها الوالي علي باشا عام ١٨٨٨، «المشرق» للأب لويس شيخو عام ١٨٩٨، «الكنانة» الصادرة عن الكلية السورية الأنجيلية

عام ١٩٠٠، «الإقبال» لمؤسسها الشيخ عبد الباسط الأنسي عام ١٩٠٢، (Melanges) الصادرة عن الجامعة اليسوعية عام ١٩٠٦، «الاتحاد اللبناني» للشيخ احمد حسن طبارة وخليل عورا عام ١٩٠٨، «أبابيل» للشيخ حسين محيي الدين الحبال عام ١٩٠٩، «الكوثر» لبشير رمضان عام ١٩٠٩، «النبراس» للشيخ مصطفى الغلاييني عام ١٩٠٩، «المفيد» لعبد الغني العريسي، «الحقيقة» للشيخ احمد عباس الأزهري عام ١٩٠٩، «الرأي العام» لطه المدور عام ١٩١٠، «الرشيد» للشيخ صالح المدهون اليافي عام ١٩١٠، «لسان العرب» و «فتى العرب» لعبد الغني العريسي وفؤاد حنتس عامي ١٩١٢ و١٩١٣، وغيرها الكثير من الصحف والدوريات التي لا يمكن حصرها كلها في هذه الدراسة.

الجمعيات في بيروت

أما فيما يختص بالجمعيات العلمية والثقافية والاجتماعية فيأتي في مقدمتها: الجمعية العلمية السورية، وهي أول جمعية تأسست في بيروت عام ١٨٥٨، وقد انضم إليها (١٨٠) عضواً من مختلف الطوائف من أعضائها: الحاج حسين بيهم العيتاني، ناصيف اليازجي، إبراهيم اليازجي، رزق الله خضرا، حبيب بسترس، حُنين الخوري، سليم البستاني، عبد الرحيم بدران، سليم شحاده، سليم رمضان، موسى فريج، حبيب جلخ. ومن المعروف أن هذه الجمعية ساهمت في الحياة السياسية البيروتية، ووزعت منشورات في بيروت بين العامين ١٨٨٠ ـ ١٨٨١، دعت فيها إلى الوطن السوري الواحد، وانتهت المنشورات بأبيات شعرية لابراهيم اليازجي القائلة:

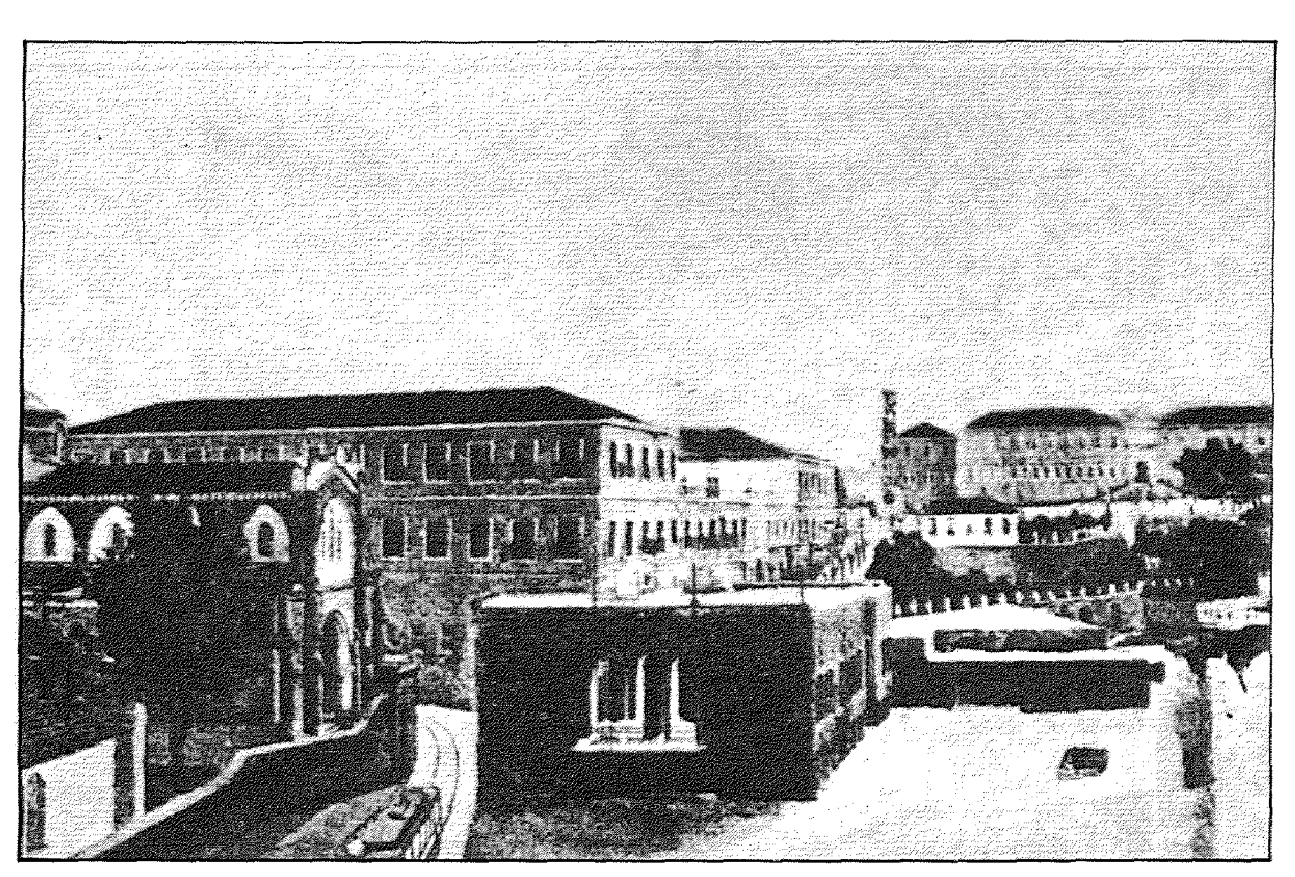
«تنبهوا واستفيقوا أيها العرب»

ومن الجمعيات العلمية والثقافية والتربوية والاجتماعية في بيروت العثمانية: جمعية زهرة الإحسان، جمعية شمس البر، جمعية زهرة الآداب، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، جمعية الفنون، جمعية ثمرة الإحسان، جمعية لجنة ثمرة الإحسان الإسلامية، جمعية لجنة التعليم الإسلامية، جمعية اللجنة الخيرية الإسلامية، جمعية بيروت الإصلاحية، وسواها من الجمعيات الخاصة بإنشاء المدارس والقيام بأعمال خيرية وإنسانية واجتماعية وتربوية.

المرأة البيروتية

ومن الدلائل على وجود حياة علمية متطورة في بيروت العثمانية، واقع المرأة البيروتية واللبنانية. فالوقائع التاريخية تناقض الاتهامات التي تساق ضد المرأة التي بدأت بالتعلم في المراحل الابتدائية والثانوية وفيما بعد الجامعية. كانت جمعية «باكورة سوريا» أول جمعية للخريجات تأسست علم ١٨٧٩، من أهدافها العمل على تعليم المرأة وترقية أوضاعها الاجتماعية والثقافية، وقد انتخبت السيدة حِسن عتيق أول رئيسة لهذه الجمعية. وقد تلتها جمعيات نسائية عديدة كان لها مجلات ثقافية وأندية اجتماعية ومن رائدات هذه الجمعيات والأعمال الاجتماعية: مريم مزهر، سليمة أبي راشد، الأميرة نجلاء أبي اللمع، أملي سرسق، لبيبة جهشان، جوليا طعمة دمشقية، مدام ملحمة، نازك عابد بيهم، ابتهاج قدورة، عنبرة سلام الخالدي، وداد محمصاني، شفيقة غزّيب، هند حشاش، اليس ادلبي، أمينة حمزة، عادلة بيهم، نجلاء محمد راشد بيهم، زليخا قباني، أسما غندور ادريس، ثريا طبارة، أمينة الحمزاوي، وحيدة الخالدي، سلمى أبي راشد، ماري يني، وسواهن الكثير ممن شاركن في الحياة الاجتماعية، والتربوية والثقافية. وكان عزمي بك والي ولاية بيروت وأحمد مختار بيهم وجورج نقولا باز، يعتبروا من مشجعي النهضة النسائية في العهد العثماني.

وبمرور الزمن كانت المرأة البيروتية واللبنانية تتابع تخصصها العالي وتحرز النجاح تلو النجاح، وذلك في العهدين العثماني والفرنسي ومنهن: الدكتورة انسطاس بركات باز التي نالت الدكتوراه منذ عام ١٩٠٥ من جامعة متشيغن في الولايات المتحدة الأميركية، الدكتورة سنية حبوب خريجة جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية، الدكتورة أدما أبو شديد، الدكتورة الين صافي، الدكتورة هدى رفاعي، الدكتورة مي سعادة، الدكتورة آسيا مصطفى العيتاني وسواهن.



□ الثكنة العسكرية والمستشفى العسكري وكنيسة الكبوشية في نهاية العهد التركي.

وفي ميدان الصيدلة برزت الدكتورة زهية بركات والدكتورة أملي صافي وسواهن. ومن القابلات منذ القرن التاسع عشر السيدة رشدية فاخوري زوجة الدكتور أنيس قدورة. ثم برزت القابلات القانونيات خريجات الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية ــ معهد الطب الفرنسي منهن: سهيلة سعادة، كوثر حلاق، درية الصغير، بديعة صندقلي، فاطمة العريس، مكرم الحسيني، لمياء عضاضة، وداد صندقلي، رمزية مروش، سلوى رواس، والآنسة غندور وسواهن الكثير.

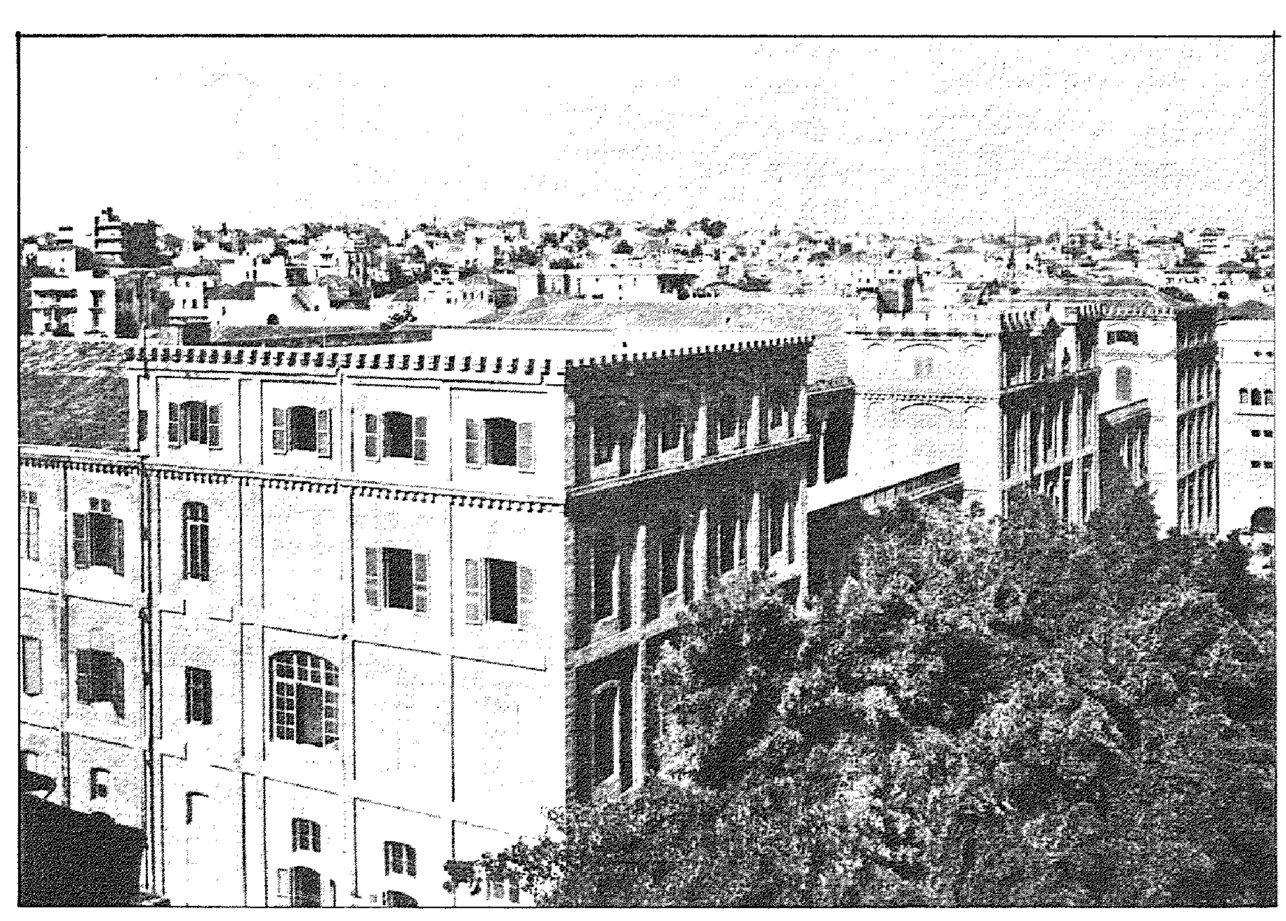
وفي إطار دور المرأة في الحياة العلمية في بيروت، فلا يمكن أن ننسى ظاهرة «الست حفيظة كريم» التي كانت علماً من أعلام المسلمين في بيروت، حيث قامت بدور بارز وأساسي في تعليم الفتيات المسلمات في العهدين العثماني والفرنسي.

وفي مجال العلوم والآداب الإنسانية برزت فيما بعد كل من: د. زاهية قدورة، د. نجلاء عز الدين، د. سلوى نصار، د. إكرام الصغير وسواهن. أما حاملات الليسانس والدبلومات فهن كثيرات ولا يتسع المجال لذكرهن جميعاً، ولكن من الرعيل الأول منهن: هيفاء طبارة، مريم عيتاني، أناقة الزعني، إنعام الصغير، زاهية دوغان، رجاء الشريف، سيرين الحسيني، عزيزة الزين، فاطمة الزين، يسرى محمد علي بيهم، دينا ونهلا مروة، ممدوحة السيد، عايدة عانوتي، فتنة مسيكة وسواهن الكثير.

ولا بد من الإشارة إلى أن عهد الانفتاح الذي شهدته بيروت العثمانية في القرن التاسع عشر، أدت إلى ولادة بعض الجامعات والمعاهد الأجنبية خاصة الكلية السورية الأنجيلية التي عرفت باسم الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف المعروفة باسم الجامعة اليسوعية.

الكلية السورية الأنجيلية (الجامعة الأميركية فيما بعد)

أقيمت الكلية السورية الأنجيلية عام ١٨٦٦ بمسعى الدكتور دانيال بلس، الذي كان رائداً للتبشير الأنجيلي البروتستانتي في البلاد السورية، وقد آزره في إقامة الكلية الدكتور وليم طومسون، كما لاقى الدعم والتأييد من الحكومة الأميركية. وكان افتتاح الكلية في البدء في منطقة زقاق البلاط قبل انتقالها إلى منطقة رأس بيروت.



□ كلية الطب في جامعة القديس يوسف (اليسوعية).

وقد زاولت الكلية عملها بستة عشر تلميذاً، أثنا عشر من جبل لبنان وواحد من طرابلس وثلاثة من بيروت، استضافهم المعلم بطرس البستاني في مدرسته الوطنية في زقاق البلاط.

وفي عام ١٨٦٧ افتتحت كلية الطب بهمة الدكتور فانديك والدكتور يوحنا ورتبات، وكانت الدروس تلقى باللغة العربية. وعندما اشترى المبشرون الأميركيون أراضي في رأس بيروت من آل عاقل وآل منيمنة ومن عائلات بيروتية أخرى، وضعوا حجر الأساس عام ١٨٧١، وسخر البيارتة يومذاك من الأميركيين، لأن منطقة رأس بيروت كانت مقفرة من الناس وقال البيارتة يومذاك: «الأميركان بدهم يسكنوا بين الواوية».

والحقيقة فإن الكلية لم تنتقل إلى رأس بيروت إلا عام ١٨٧٣، ومنذ ذاك التاريخ بدأ الناس يعرفون أهمية الكلية فوهبوها أوقافاً وأراضي مجاناً لبناء بقية المدارس والصفوف عليها. وقد عثرت من بين وثائق سجلات المحكمة الشرعية في بيروت لعام ١٢٨٦هـ على وقف للكلية السورية الأنجيلية مقدم من الخواجه ميخائيل بن يونس الغرزوزي، وقد تضمن الوقف ثلاث قطع أرض سليخ في محلة الطنطاس في رأس بيروت. واشترط الواقف أن تبنى في الأراضي الموقوفة مدرسة لتعليم أنواع العلوم والصناعات لكل من يريد التعلم من سائر الطوائف. واشترط الواقف ميخائيل الغرزوزي أن يكون الخواجه دانيال بلس الأميركاني رئيساً على المدرسة التي ستبنى في أرض الوقف، ولمن يكون رئيساً بعده كائناً من كان. وهذه الوثيقة تنشر للمرة الأولى.

وباعتبار أن الكلية الأميركية كلية تابعة للوقف الأنجيلي، ولما كانت الأوقاف عامة معفاة من الضرائب، فقد أصدرت الدولة العثمانية فرماناً يعفي الكلية من الضرائب على مبانيها وعقاراتها وعلى مواد البناء التي يمكن أن تستوردها.

والجدير بالذكر أنه ما هي إلا سنوات حتى غدت الكلية السورية الأنجيلية من أهم المؤسسات الثقافية في بيروت العثمانية، وقد تعددت اختصاصاتها وكلياتها منها كليات:



□ كلية المقاصد في بيروت.

الاستعدادية، العلمية، كلية الطب، كلية الصيدلة، كلية طب الأسنان، كلية التجارة، كلية الآثار. كما اشتهرت عبر تاريخها بمرصدها الهام الخاص بقياس الجو والطقس الذي أنشىء عام ١٨٩٤. وإلى جانب ذلك فقد ضمت الكلية مكتبة ازدادت أهميتها تباعاً، وهي لا تزال إلى اليوم، من أهم المكتبات العاملة في بيروت تزخر بأمهات المصادر والكتب النادرة، كما تحوي مخطوطات نادرة في مختلف العلوم والآداب والتاريخ والفلسفة وسواها. وكان التدريس في الكلية باللغة العربية ثم باللغة الأنجليزية.

الكلية اليسوعية (الجامعة اليسوعية)

تأسست الكلية اليسوعية في بيروت عام ١٨٧٥، بفضل جهود الرهبان الكاثوليك ودعم فرنسا بالدرجة الأولى. وقد قامت كرد فعل على قيام الكلية السورية الأنجيلية الأميركية التي كانت قد بدأت باستقطاب اللبنانيين ومنهم أبناء الطائفة الكاثوليكية. لذا رأى اليسوعيون إنشاء كليتهم للمساهمة في الحياة الثقافية من وجهة نظرهم. وقد تألفت الجامعة في البدء من كليتين دينيتين هما: كلية اللاهوت وكلية الفلسفة، ثم أضيفت كليات الطب والصيدلة والحقوق والآداب وسواها. وكان التعليم في البدء باللغة العربية ثم تحول إلى اللغة الفرنسية. وكما فعلت الكلية السورية الأنجيلية بإقامة مرصد لها عام ١٨٩٤، عمدت الجامعة اليسوعية إلى إقامة مرصد خاص بها عام ١٩٠٧، وهو المعروف باسم مرصد كسارة. وبالإضافة إلى ذلك فقد استحدثت الكلية مكتبة هامة تزايدت أهميتها مع مرور الزمن، وتعتبر المكتبة اليسوعية من أهم المكتبات العاملة في بيروت ولبنان إلى جانب مكتبة الجامعة الأميركية، حيث تضم أيضاً مجموعات نادرة من المصادر والكتب والمخطوطات المتنوعة.

مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت

من المميزات الثقافية والتربوية في بيروت

العثمانية، تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية للعناية بتعليم النشء الجديد، تخوفاً من استيعاب المؤسسات التبشيرية التربوية لهذا النشء. وكان الاجتماع الأول لأعضاء الجمعية في الأول من غرة شعبان ١٢٩٥هـ ــ ١٦ تموز ١٨٧٨م، برئاسة الشيخ عبد القادر قباني، وعضوية السادة: أحمد دريان، بشير البربير، بديع اليافي، حسن بيهم، حسن الطرابلسي، حسن محرم، خضر الحص، راغب عز الدين، سعيد الجندي، سعيد طربيه، طه النصولي، عبد الله غزاوي، عبد القادر سنو، عبد اللطيف حمادة، عبد الرحمن نعماني، محمود خرما، محمد ديه، محمود رمضان، مصطفى شبارو، محمد فاخوري، محمد اللبابيدي، مصباح محرم، محمد أبو سليم المغربل، وهاشم الجمال..

والأمر اللافت للنظر أن أول مدرسة مقاصدية خصصت للإناث. وجاء في الفجر الصادق للجمعية مبررات ذلك فيما يلي نصه: «فوجدنا أن أحسن وسيلة لنشر المعارف فيها هو تعليم الإناث منها طرق التربية وما يحتجن إليه من العلوم والصنائع، إذ هن المربيات الأول وعلى تقدمهن المعول، فتذاكرنا بافتتاح مدرسة لهن» وكان الإقبال على مدرسة الإناث المقاصدية شديداً فضمت ما يقارب مئتي فتاة في منطقة الباشورة، وكانت كلية المقاصد الإسلامية. ثم عمدت الجمعية إلى فتح مدارس عديدة للذكور والإناث مقدمة لافتتاح جامعة المقاصد الإسلامية يومذاك. ثم اهتمت الجمعية بالعلوم الطبية فأرسلت خمسة طلاب لتعلم الطب في المدرسة الطبية الخديوية في مصر وهم: كامل قريطم، عبد الرحمن الأنسي، محمد سلطاني، حسن الأسير، سليم سعد الدين سلام.

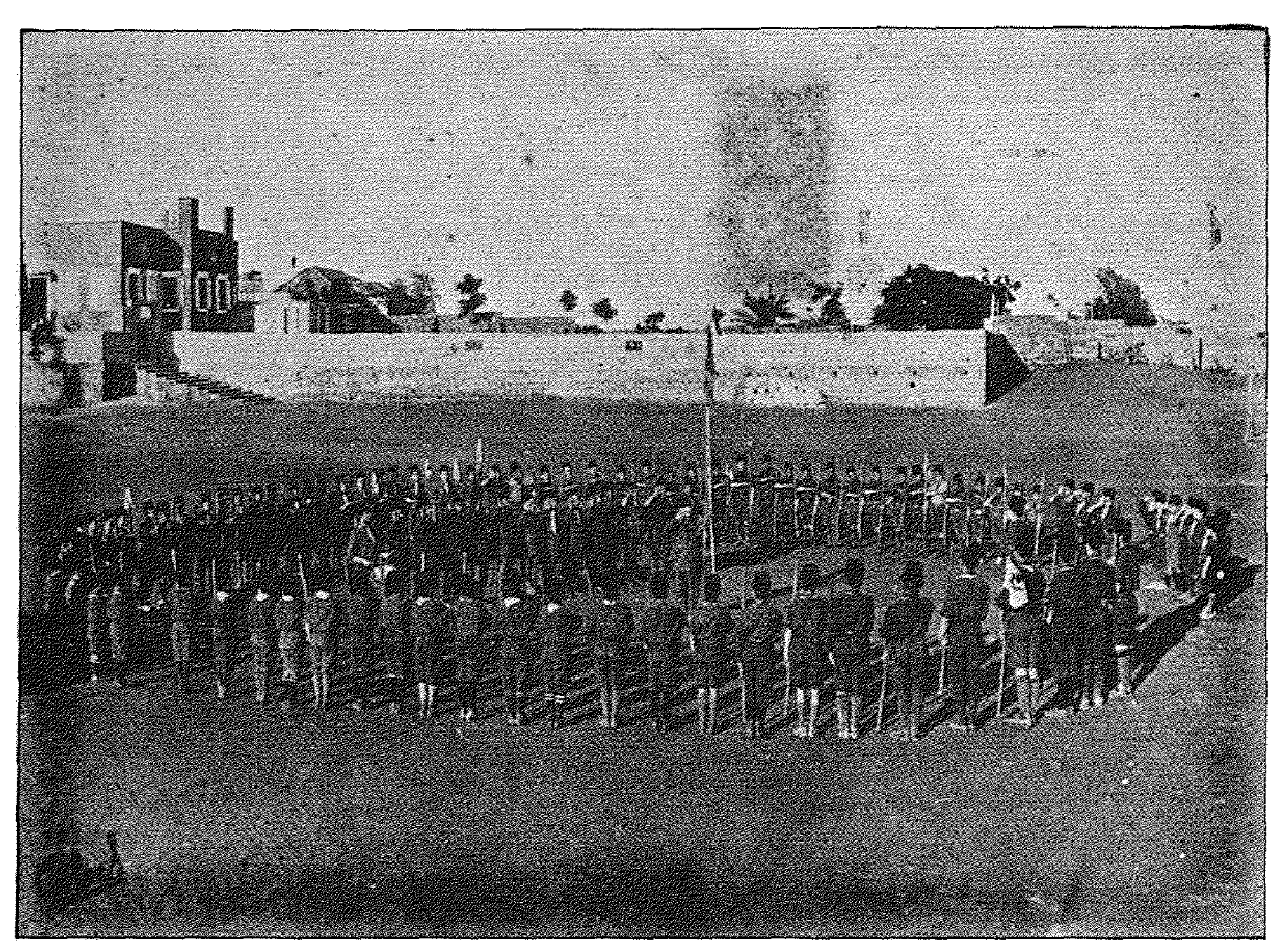
هذا وقد أقبل المسلمون والطوائف الأخرى على الالتحاق بمدارس المقاصد التي انتشرت في مختلف المناطق اللبنانية. وقد استطاعت هذه المدارس إحداث المزيد من اليقظة العلمية والتطور التربوي والعلمي في بيروت العثمانية.

الكلية العثمانية الإسلامية

من المدارس العاملة والمؤثرة في اليقظة العلمية ليس في بيروت العثمانية فحسب، وإنما في مختلف مناطق الدولة العثمانية المدرسة (الكلية) العثمانية لمؤسسها الشيخ أحمد عباس الأزهري بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر قباني وذلك في عام ١٨٩٥. وقد قامت هذه الكلية بدور بارز في مجالات النهضة والتربية والتعليم، واستقطبت طلاباً من بيروت وجبل لبنان ومن العالمين الإسلامي والعربي، واعتمد فيها مناهج التربية الحديثة وجعلها على مراحل: روضة الأطفال، المرحلة الابتدائية، القسم الاستعدادي ثم العلمي. وقد حدد الشيخ أحمد عباس الأزهري منهجه التربوي قائلاً: «... سالكين بتلامذتها في سبل أنحاء التعليم وطرق التحصيل من النهج الأعم والطريق الأقوم... مرتفعين بهم في مدارج العلم إلى غاية تكسبهم عقلاً جديداً ونشأة مستأنفة وثيقة العرى حسنة الصبغة ترصفهم أخلاق العلوم شيئاً فشيئاً...» ومما قاله مشيراً إلى أهمية العلم: «... إن مكانة الأمة مرتبطة بارتقاء قوى أفرادها العقلية، فتكون رفيعة الشأن منيعة العزة إذا كانت قوى أفرادها العقلية نامية مرتقبة... لا مراء في أن أسمى البلاد مكانة وأكرمها منزلة من جعلت العلم شعارها، فكلما ارتفع منار العلم ارتفع شأن الأمة...».

ومن الأهمية بمكان أن رواد النهضة العربية والإسلامية منذ العهد العثماني بغالبيتهم من تلامذة وخريجي الكلية العثمانية ومنهم على سبيل المثال: الدكتور نسيب البربير، الدكتور بشير القصار، الدكتور مليح سنو، الدكتور محمد كنيعو، عمر الزعني، بهاء الدين الطباع، بشير النقاش، محمد الصانع، عمر فاخوري، عبد الرحمن المجذوب، أحمد دياب، توفيق فايد، معروف الأرناؤوط، مختار طبارة، أحمد فاخوري، عادل أرسلان، رفيق البراج، الرئيس عبد الله اليافي، الرئيس حسين العويني، الرئيس رياض الصلح، شكيب الجابري، عارف العارف، علي ناصر الدين، توفيق الناطور، عارف النكدي، عمر حمد، عبد الغني العريسي، محمد ومحمود محمصاني، أحمد مزبودي وسواهم الكثير.

وفي الإطار الثقافي في بيروت العثمانية لا بد من الإشارة إلى ظاهرة محمد أفندي بيهم ــ عضو مجلس المبعوثان العثماني ــ الذي



□ اجتماع عام للكشاف المسلم في ملعب الكلية الإسلامية، بيروت ١٩٢٦.

عرف عنه حبه وتقديره وتشجيعه للعلم وللمتعلمين، فقد درج في نهاية كل عام مدرسي على توزيع ساعات يدوية للمتفوقين من تلامذة بيروت لا سيما تلاميذ المقاصد. كما اشتهر عنه بأنه صاحب القول المأثور «تعلم يا فتى فالجهل عار» وكان يطلب من بعض الشبان كتابة هذا القول على جدران شوارع بيروت العثمانية.

مكتب الصنائع والتجارة الحميدي (الصنائع)

رأت الحكومة العثمانية ضرورة الاتجاه نحو إنشاء الكليات والمدارس الصناعية والمهنية والتجارية، بعد أن تكاثرت المدارس العادية. ورأى والي بيروت بأن المدينة تحتاج إلى مثل هذه المدارس، فعمد بعض المسؤولين إلى البحث عن موقع لبناء مدرسة مهنية، فارتأى البعض أقامتها في باطن بيروت في سوق البازركان بعد أن استملك مجلس إدارة ولاية بيروت خان الصاغة، ولكن استقر الرأي أخيراً على إقامة المدرسة في حي الرمل الذي عرف فيما بعد باسم منطقة الصنائع. وبالفعل ففي عام ١٩٠٥ احتفل والي بيروت ونقيب السادة الأشراف الشيخ عبد الرحمن الحوت ومجموع من العلماء والقادة والمسؤولين بوضع حجر الأساس لمكتب الصنائع والتجارة الحميدي. وبعد حوالي ثلاث سنوات من العمل المتواصل، افتتح المكتب في عام ١٩٠٧ في إطار احتفال ضخم، وبالمناسبة ذاتها تم غرس أول شتلة (غرسة) في حديقة الصنائع.

وكان النظام التعليمي في هذه الكلية الصناعية: قبول الطلاب مجاناً، إقامة الطلاب داخلية مع تأمين النوم والأكل والملبس والتعليم، تعليم الطلاب مختلف المهن والصناعات والفنون والعلوم التجارية والاقتصادية.

هذا وقد انفق على بناء هذه الكلية مبلغ (٣٥) ألف ليرة عثمانية، جمع المبلغ بالتعاون ما بين الدولة والمواطنين. وقد عين رئيساً للجنة هذا المكتب المهني عمر بك خلوصي، ومن

أعضائها: الشيخ عبد القادر قباني (مدير المعارف) والشيخ محمد الكستي (رئيس كتاب المحكمة الشرعية في بيروت) والشيخ رشيد فاخوري (محرر المقاولات) ومحمد اللبابيدي (مأمور الأجراء) وأمين حلمي (محاسب الولاية) والحاج محمد الطيارة من أعيان بيروت.

وبالإضافة إلى هذه المدارس والكليات والجامعات، كانت هناك مدارس حكومية وخاصة عديدة، قامت بدور بارز في الحياة العلمية في بيروت العثمانية.

علماء بيروت

من الأهمية بمكان القول بأن بيروت العثمانية شهدت ولادة الكثير من العلماء والمفتين والقضاة والفقهاء، ولا تزال بيوت البيارتة ومكاتبهم تزخر إلى اليوم بالمئات من المخطوطات وأمهات الكتب والمؤلفات العلمية والأدبية والتاريخية والفقهية والدينية، وأن الكثير من هذه المخطوطات لم تنشر إلى الآن، لذا لا بد من الاهتمام بها لإخراجها وتحقيقها مقدمة لطبعها وإصدارها في كتب علمية.

ومن علماء بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على سبيل المثال لا الحصر (مفتون، قضاة، فقهاء...): أحمد الأغر، أحمد البربير، عبد الباسط فاخوري، عبد اللطيف فتح الله، محمد الحلواني، محيي الدين اليافي، مصطفى نجا، إبراهيم الأحدب، محمد سعيد أياس، أحمد عباس الأزهري، يوسف الأسير، عبد الباسط الأنسي، أحمد بدران، محمد البربير، حسين بيهم، محمد جميل بيهم، حسين الحبال، عبد الرحمن الحوت، محمد الحوت، عبد الله خالد، محمد رشيد الدنا، عبد الرحمن سلام، أحمد طبارة، عبد الغني العريسي، مصطفى الغلاييني، عبد القادر قباني، محمد الكستي، إبراهيم المجذوب، محمد المجذوب، أحمد المحمصاني، حسن المدور، عبد الكريم أبو النصر اليافي، محيي الدين الخياط، سليم البابا، محمد علي الأنسي، محمد توفيق الهبري، يوسف علايا، أحمد مختار العلايلي، عبد القادر نحاس، قاسم الكستي، محمد سوبرة، أحمد علي عساف وسواهم الكثير مما لا يتسع المجال لذكرهم.

الخستة خانات (المستشفيات) والأطباء

كانت بيروت على غرار أكثر المدن العربية، فبعد مرحلة الانهيار العلمي الذي عم المناطق العربية والإسلامية بعد العصور الوسطى، بعد أن كانت تتميز هذه المناطق بأنها مراكز للعلم، عادت الأساليب التقليدية في معالجة المرضى، واختفت البيمارستانات (المستشفيات) المتخصصة، لتحل محلها أساليب التداوي العادية.

وكان الحلاق في المجتمع البيروتي والعربي بشكل عام هو الطبيب المختص في الحالات كافة سيما الأمراض الجلدية وأمراض الرأس وأوجاع الأسنان والأضراس، وهو الذي يقوم بختن الأطفال. ومن هنا جاء المثل الشائع عن الحلاق «بيكون عمبيحلق فإذا به بيقبع أضراس».

وتبعاً للظروف الصحية والعسكرية ، بدأت الدولة العثمانية بإنشاء بعض الخستة خانات (المستشفيات) في بيروت والولايات العثمانية. ففي أواسط القرن الثامن عشر أنشأت الحكومة العثمانية المستشفى العثماني في بيروت في المحلة المعروفة بالتكنات بجوار بوابة يعقوب (سراي الحكومة السابق). كما أنشأت في أواسط القرن التاسع عشر الخستة خانة الجديدة في بيروت مع القشلة العثمانية (الثكنة) المعروفة اليوم بمنطقة سراي الحكومة القديمة ومركز العدلية السابق في داخل البلد، وقد عرف ذلك المستشفى باسم «بيروت عسكري خستة خانة سي». ومن أطباء المستشفى الحكومي العثماني الدكتور إبراهيم أفندي صافي والدكتور خيري بك. وقد وصف عبد الرحمن سامي بك في حوالي عام ١٨٩٠ هذا المستشفى بقوله:

«توجهت مع حضرة عزتلو محيي الدين بك حمادة لزيارة مستشفى الحكومة السنية. فقابلنا هناك جناب الفاضل الدكتور خيري بك ، نجل احد اعيان الآستانة العلية، وارانا مع رفقائه الأطباء غرف المستشفى ومعداته. فإذا هو كامل الترتيب، نظيف للغاية، وجميع اسرته على احسن ما شاهدت في المستشفيات (الأسبتاليات). وكان المرضى قليلين وذلك لجودة الهواء واعتناء حضرات الأطباء. ومما زادني سروراً أنس حضرة الدكتور خيري بك، ومعاملته مع حضرات رفقائه المرضى باللطف والاعتناء والاهتمام الزائد. وبلغني أن معظم الفضل في قلة الأمراض عائد لحضرة الفاضل حمادة بك



صورة طلاب الكلية الإسلامية وهم:

١ ــ بهاء الدين الطباع.
٢ ــ بشير النقاش.
٣ ــ محمد الصائغ.
٤ ــ عمر حمد.
٥ ــ عمر فاخوري.
٦ ــ عمر الزعني.
٧ ــ عبد الرحمن المجذوب.
٨ ــ احمد دياب.
٩ ــ توفيق فايد.
١٠ ــ معروف الارناؤوط.
١١ ــ الدكتور بشير قصار.
١٢ ــ الدكتور مليح سنو.
١٣ ــ مختار طبارة.
١٤ ــ احمد فاخوري.
١٥ ــ من عائلة طبارة.
١٦ــ من عائلة بيضون.

رئيس مجلس بلدية بيروت الذي يفرغ جهده اناء الليل وأطراف النهار مهتماً بأحوال النظافة وبإزالة ما يضر بالصحة العمومية...».

ومن المستشفيات العثمانية الحكومية «المستشفى الحميدي» الذي أقيم في محلة الرمل (أي منطقة الصنائع فيما بعد) بالقرب من مكتب الصنائع والتجارة الحميدي.

ومن الخستة خانات العاملة في بيروت العثمانية المستشفى البروسي المعروف باسم «خستة خانة بروسيا» (المستشفى الألماني) وموقعه في رأس بيروت قرب الكلية السورية الأنجيلية، وهو على نفقة الألمان وأمراء مار يوحنا. وكان يقبل على هذا المستشفى الفقراء من مختلف المناطق، وكانت المعاينة مجانية، في حين كانت الراهبات تعتني بالمرضى وبنظافة الغرف. وكانت رئيسته في أواخر القرن التاسع عشر السيدة لويزا.

ومن المعروف أن العلّامة فان دَيْك (Van Dyke) خدم في هذا المستشفى، ونال أعلى نيشان (وسام) من الأمبراطور الألماني غليوم الثاني.

أما فيما يختص بأساتذة الطب في الكلية السورية الأنجيلية. فأنهم كانوا يعاينون المرضى في المستشفى البروسي. كما كان طلاب الطب في هذه الكلية يتدربون في هذا المستشفى، وذلك قبل إنشاء المستشفى الخاص بهم. علماً أن كلية الطب الأميركية ذاتها تأسست بمسعى الدكتور فان ديك والدكتور يوحنا وربتات.

ومن المستشفيات في بيروت العثمانية أيضاً، المستشفى اليسوعي في اليسوعية، وكان يديره أساتذة الطب في المدرسة اليسوعية، وكان هؤلاء الأطباء يطببون أيضاً في مستشفى الراهبات العازاريات في منطقة العازارية في باطن بيروت، والذي عرف فيما بعد باسم المستشفى الفرنسي. ومن المستشفيات أيضاً أوتيل ديو (Hotel Dieu) التابع لكلية الطب الفرنسية، وهو لا يزال إلى الآن من المستشفيات العاملة وموقعه إزاء متحف بيروت الوطني.

وفي العهد العثماني أنشأت الطائفة الأرثوذكية مستشفى في الأشرفية. وقد تقدم للمعاينة فيه مجاناً كل من الدكتور فان ديك والدكتور حبيب طبجي والدكتور سمعان الخوري.

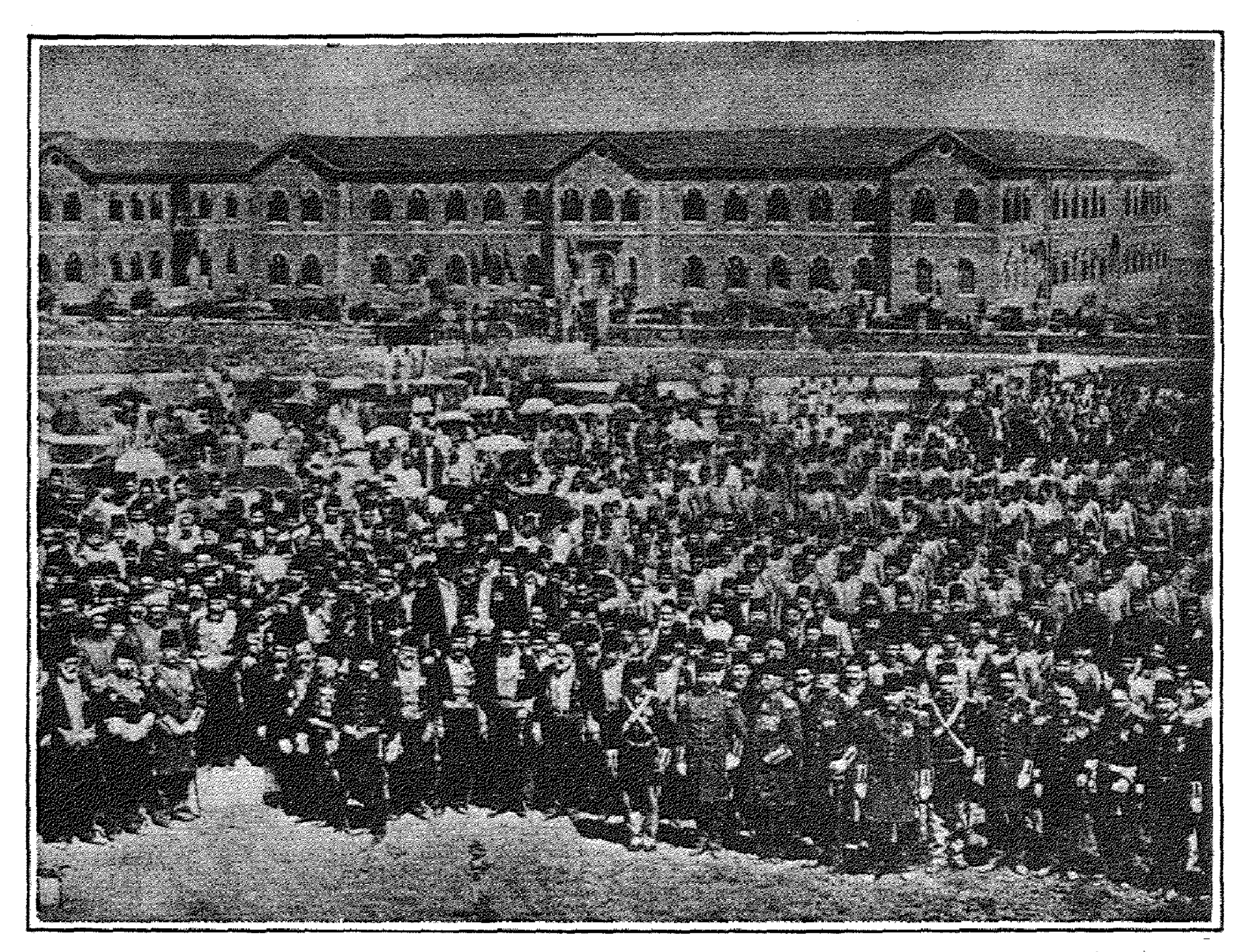
هذا ومن ملامح اليقظة العلمية في بيروت العثمانية تطور الحياة الطبية والصحية فيها، فمن أطباء بيروت المحليين والأجانب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: إبراهيم صافي، إبراهيم مطر، إبراهيم زغرب، إبراهيم ثابت، إبراهيم مدور، إبراهيم صوما، أدمسي، أسعد عفيش، أديب قدورة، اسكندر بارودي، اسكندر رزق الله، الفرد خوري، الياس عرمان، الياس شكر الله، الياس الحاج، الياس جبارة، انطوان نقاش، بركستوك، براسقولي، بشارة زلزل، بوش، بلس، بوايّه، تيوفيل دبانة، توفيق رزوق، جان باسيليو، حبيب شملاوي، حسن الأسير، حسن قباني، حبيب طويحي، حليم بن أديب قدورة، حنا حنين، خيري بك، داوود برباري، دندن، دوبران، ديرك، زورز بوست، روبه، سامح فاخوري، بشير القصار، سليم هرموش، سليم جلخ، سمعان خوري، شابوتن، شاكر خوري، شوفلر، عبد الحفيظ العريسي، عبد الرحمن الأنسي، عبد الرزاق حمادة، ڤانديك، فريد كساب، فضل الله عسيلي، كالمات، لورانج البروسي، متري السيوفي، ملحم فارس، نجيب بربور، نيكر، نيكولاكي، هاش، وفيق بيضون، يعقوب ملاط، يوحنا وربتات.

ومن المعروف أن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر شجعت على اليقظة العلمية وعلى اختراق ميدان الطب، فمنحت بعض الأوسمة الرفيعة (النيشان) للأطباء المميزين، والذين أدوا خدمات طبية في الدولة، ومنهم على سبيل المثال: «كرنيلوس ڤان ديك». كما اعتمدت الدولة العثمانية في مجال الطب نظام اللجان الطبية بالتعاون مع فرنسا، وأنظمة الامتحانات والمعادلات (الكولوكيوم). هذا وقد كان للأطباء نقيب يعرف باسم «سر أطباء» أو «سر دوقتور» أي نقيب الأطباء. أما فيما يختص بالأطباء المسلمين الأوائل في بيروت، فإن لذلك قصة ينبغي ذكرها والإشارة إليها. فمن المعروف أن آل قدورة ـــ وآل فاخوري من بعدهم ـــ أول من اخترقوا جدار الطب في بيروت. وكان الدكتور اديب قدورة أول طبيب مسلم بيروتي يتخرج من الكلية السورية الأنجيلية (الجامعة الأميركية) عام ١٨٨١ بعد أن أمضى خمس سنوات في دراسة الطب (١٨٧٦ ـــ ١٨٨١). بينما كان مصطفى قدورة أول صيدلي مسلم من بيروت يتخرج عام ١٩٠٠ ويؤسس صيدلية في منطقة السور في باطن بيروت (ساحة رياض الصلح فيما بعد).

وهذا الواقع حدا بالشيخ عبد القادر قباني أول رئيس لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت إلى حث المسلمين على التعلم ومجاراة الطوائف الأخرى. ومما حدا برئيس الجمعية الجديد حسن بك محرم إلى الاهتمام بتوجيه الطلاب نحو التخصص في كليات الطب، وقد بدأ النشاط في هذا الاتجاه ابتداء من ٢٢ شوال ١٢٩٦هـ ـــ ٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٧٩، عندما طلبت جمعية المقاصد من الحكومة العثمانية العمل لقبول الحكومة المصرية خمسة طلاب ترسلهم الجمعية إلى مدرسة الطب الخديوية. وبعد إنهاء الاتصالات اللازمة ما بين ولاية بيروت والحكومة العثمانية والحكومة المصرية، اختارت جمعية المقاصد خمسة طلاب لإرسالهم إلى مصر للتخصص الطبي وهم: كامل قريطم، عبد الرحمن الأنسي، سليم سعد الدين سلام، حسن الأسير، ومحمد سلطاني.

وفي جلسة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت من يوم الجمعة ٢٦ محرم ١٢٩٧هـ ـــ ٩ كانون الثاني ١٨٨٠ جاء في محضر الجلسة ما يلي:

«نقدم الشكر إلى الله سبحانه وتعالى الذي وفق هذه الجمعية لإرسال الخمسة التلامذة المتقدم ذكرهم سابقاً إلى مدرسة الطب في مصر، وذلك في يوم السبت الواقع في ٢٢ محرم ١٢٩٧ في قمرة الوابور الفرنساوي عن طريق الأسكندرية مصحوبين مع أحد ذوات البوليس، حسن أفندي المأمور المخصوص من طرف الحكومة السنية بإيصالهم إلى حكومة الأسكندرية، التي ترسلهم لمصر للمدرسة المذكورة. كما أننا نقدم الثناء لدولة والينا الأفخم، ولسعادة متصرفنا الأكرم، وللحكومة



□ حفل افتتاح مكتب الصنائع والتجارة الحميدي، بحضور والي بيروت وكبار القادة والرسميين ورجال الدين والخيالة والعسكريين وحشد من البيارتة. ويبدو في الصورة غرسات (شتل) لزرعها حيث اصبحت فيما بعد حديقة الصنائع.

المصرية، ولكل من ساعدنا بهذا المشروع الخيري».

وبعد ذلك شهدت بيروت تخرج العديد من الأطباء المسلمين والنصارى، وانضموا إلى زملائهم للقيام بدور رائد في ميدان الخدمة الطبية والصحية في بيروت والمناطق اللبنانية.

الأجزاخانات (الصيدليات)

عرفت بيروت العثمانية الكثير من الأجزاخانات (الصيدليات) التي كانت تلبي حاجة المرضى والأطباء والمستشفيات. وتشير سالنامة ولاية بيروت للعام ١٣٢٦هـ ــ إلى أسماء الصيادلة وأماكن صيدلياتهم وإلى أسمائها ومن هؤلاء الصيادلة:

إبراهيم طعمة، أدوار طوقاتلي، اسكندر حلو، أمين فاخوري، إسماعيل، انطوان عرب، الياس يمين، بطرس انطوان شكر الله، بول صوما، جورج انطوان شكر الله، جورج فياض، حبيب سليم بتلوني، حليم غرزوزي، خالد خازن، داود نحول، سليم فاخوري، عبدو وعبد الله صوراتي، عزت تحسين، الكساندر باولي، فريد تلحوق، فيليب مطر، محمد مصباح جمال، مرأت بارودي، مصطفى قدورة، نجيب عدراسي، نعمة جريوس مدور، نعوم باخوس، هانس هاني، يوسف بدران، يوسف الجميل. بالإضافة إلى أجزاخانات عديدة أخرى منها أجزاخانة حمادة، وأجزاخانة شاكر إخوان. وقد كان لهذه الأجزاخانات «سر أجزة» أي نقيب الصيادلة، وقد تولاها فترة الصيدلي مصطفى قدورة.

الكرنتينا (المحجّر الصحي)

قد يظن البعض بأن تاريخ إنشاء الكرنتينا (المحجر الصحي) في المنطقة المعروفة اليوم باسم الكرنتينا شرقي بيروت، يعود إلى عهد الانتداب

□ إعلان اوقاف الخواجه ميخائيل الغرزوزي لاراضيه في راس بيروت لصالح الكلية الإنجيلية لبناء مدرسة عليها لتعليم مختلف العلوم والصناعات لمختلف الطوائف على أن يكون الواقف عليها الخواجة دانيال بلس ومن ياتي بعده (مجموعة سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ١٢٨٦هـ) (تنشر للمرة الاولى).

اطباء محليه واجنبيه

اسامی	معاينه خانه‌سی
دوقتور ابراهيم مطر	على الصور ده‌كی خانه‌سنده
« ابراهيم مدور	دحداح ده‌كی «
« ابراهيم صوما	جمزه ده‌كی «
« ادمنی	رأس بيروتده‌كی «
« اسعد عفيش	اشرفيه محتاده‌كی «
« اسكندر بازودی	مار نقولا ده‌كی «
« الفرد خوری	رميله ده‌كی «
« الياس صرمان	مصيطبه‌ده‌كی «
« الياس شكرالله	طريق الشامده‌كی «
« الياس الحاج	« «
« الياس جباره	طريق النهر ده‌كی «
« انطون نقاش	« «
« بركستوك	خندق الغميق ده‌كی خانه‌سنده
« براسقولی	على الصور ده‌كی «
« تثوفيل دبانه	باشوره ده‌كی «
« توفيق رزوق	طريق الشامده‌كی «
« حسن الاسير	بسطاء محتاده‌كی «
« حسن قبانی	« «
« حبيب طوبجی	مار نقولاده‌كی «
« حليم قدوره	على الصور ده‌كی «
« حنا حنين	طريق النهر ده‌كی «
« دوبران	مصيطبه‌ده‌كی خانه‌سنده
« ديرق	رأس بيروتده‌كی «
« ژورژ پوست	رأس بيروتده‌كی «
« سامح فاخوری	بسطاء محتاده‌كی «
« سليم هرموش	اشرفيه محتاده‌كی «
« سليم جاخ	مار مارونده‌كی «
« سمعان خوری	طريق الشامده‌كی «
« شابوتن	اشرفيه محتاده‌كی «
« شاكر خوری	رأس النبع ده‌كی «

□ بعض اسماء الأطباء ومواقع عيادتهم في بيروت العثمانية (عن سالنامة ولاية بيروت ١٣٢٦هـ).

الفرنسي في لبنان أو إلى عهود الاستقلال. علماً أن هذا المحجر الصحي أقيم تجاه جامع الخضر عام ١٨٣٤ بتشجيع ومسعى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، بعد أن خضعت بلاد الشام للحكم المصري.

وكان إبراهيم باشا قد كلَّف قنصل فرنسا في بيروت هنري غيز للقيام بهذا العمل، وبالتعاون مع بقية قناصل الدول الأجنبية، بعد أن ازداد التخوف من امتداد الطاعون إلى بيروت وبلاد الشام.

وكان الأسلوب المتبع في هذه الحال، بإدخال السفن القادمة من الخارج سيما التي انتشر في بلادها الطاعون، وإدخال القادمين إلى الكرنتينا ولمدة أربعين يوماً للتدقيق والمعاينة والمراقبة الصحية. وقد اعتبر هذا العمل في حينه من الأعمال الشاقة والصعبة لما أحدث من إرباك في مرفأ بيروت والمرافئ المجاورة البيروتية المتخصصة. علماً أن جهود إبراهيم باشا وجهود القناصل الأجانب قد انصبت بشكل كثيف على تحصين بيروت والبلاد السورية من تلك الأمراض المعدية والقاتلة، وقد نجحوا فعلاً في حماية البلاد من الأوبئة التي لو انتشرت في حينه لأحدثت أزمات صحية واقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى تأثيرها على الوضع العسكري وعلى القوة العسكرية المصرية، لأن إبراهيم باشا كا يتخوف من أن يصيب الطاعون جنوده، وبذلك يفقد قدراته العسكرية.

وبالرغم من اكتشاف بعض الحالات والإصابات، غير أن القائمين على الكرنتينا أقاموا أكواخاً كبيرة بمثابة محاجر صحية لإيواء القادمين وإيداع البضائع. ولما ازدادت أعباء العمل نتيجة استمرار مجيء السفن والركاب، فقد رأت «اللجنة الصحية» المختصة إيجاد أمكنة مضاعفة لاستيعاب العمل المضاعف.

والأمر الملاحظ أن الكرنتينا التي أقيمت في عام ١٨٣٤ لدواع طارئة وتخوفاً من انتشار مرض الطاعون في بلاد الشام، فقد استمرت في أعمالها وتوسع نطاق نشاطها، ثم تطورت أساليب الوقاية الصحية. وقد توارثت الحكومات المتعاقبة هذا الإنجاز واستمر إلى وقتنا الحاضر في المنطقة ذاتها المعروفة باسم الكرنتينا ــ الخضر، إلى أن بدأت الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ فقضت على معالم هذه الوحدة الصحية.

* * *

والحقيقة فإن اليقظة العلمية في بيروت العثمانية، اسفرت عن نتائج هامة في مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً، حيث أن اليقظة العلمية فتحت المجال للبيارتة وللبنانيين للاطلاع على أوضاع الدول الأوروبية سياسياً واقتصادياً وثقافياً، فتأثروا بتلك الأوضاع بصورة أو بأخرى، فبدأوا يطالبون بتحسين أوضاعهم، أو هم على الأقل عملوا على تطوير أوضاعهم تلقائياً. ومما ساهم في تطور الحياة العلمية خطوط المواصلات المعتمدة داخلياً ومع بقية الولايات، ثم اعتماد تنوير بيروت بالغاز منذ عام ١٨٨٨ بواسطة «شركة تنوير بيروت بالغاز». ثم تنوير بيروت بالكهرباء منذ عام ١٩٠٨، كل ذلك سهل تنشيط الحركة العلمية والثقافية في بيروت العثمانية.

ومما تقدم يتبين لنا بأن بيروت العثمانية تميزت بحركة علمية نشطة، وبحياة ثقافية وأدبية متميزة، مما جعل «بيروت المحروسة» مقصداً لطلاب العلم بعد أن توارثت تراثها العلمي، وبعد أن طورت في هذا التراث، وفي حياتها العلمية عامة، وفي مختلف المجالات والميادين.

مصادر البحث

الوثائق:

١ ــ سالنامة ولاية بيروت عام ١٣٢٦هـ.

٢ ــ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت (وثائق متفرقة).

٣ ــ مجموعة د. زاهية قدورة الوثائقية.

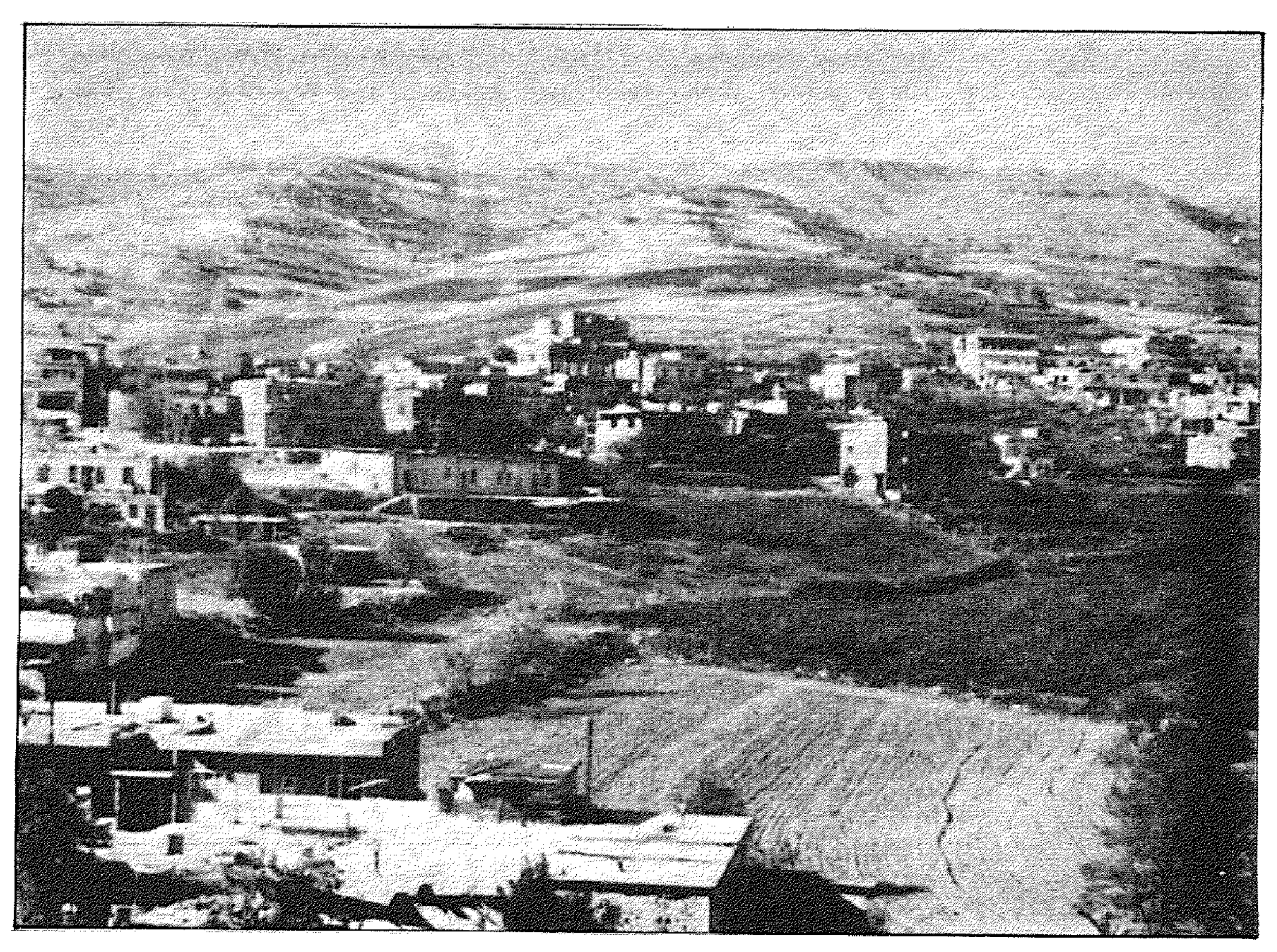
المصادر والمراجـع

(١) ابن عساكر: تاريـخ ابن عساكر، ج ٣، ٦، ٢٢، ٣٠، ترتيب الشيـخ عبد القادر بدران، دمشق ١٩٣٨.
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريـخ العثماني، دار الشروق، بيروت ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.
(٣) اسامة عانوتي: الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧١.
(٤) اسعد تميم: معالم المسلمين في بيروت في النصف الثاني من القرن التاسـع عشر ١٨٤٠ ــ ١٩٤٠ رسالة ماجستير غير منشورة ــ الجامعة اللبنانية ــ قسم التاريـخ ١٩٨٧.
(٥) جرجي نقولا باز: إميلي سرسق، المطبعة الأدبية، بيروت ١٩٣٧.
(٦) حسان حلاق: مذكرات سليم علي سلام ١٨٦٨ ــ ١٩٣٨، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٢.
(٧) حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.
(٨) حسان حلاق: التاريـخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية، الدار الجامعية بيـروت ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.
(٩) حسان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.
(١٠) حسان حلاق: مقدمة في تاريـخ الدولة العثمانية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.
(١١) زاهية قدورة: بحوث عربية وإسلامية، معهد الإنماء العربـي، بيروت ١٩٨٤.
(١٢) زين زين: نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩.
(١٣) صالـح بن يحيـى: تاريـخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبـي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.
(١٤) عبد الحميد الثاني: مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.
(١٥) عبد الرحمن سامي بك: القول الحق في بيروت ودمشق (رحلة في أواخر القرن التاسـع عشر إلى بلاد الشام) دار الرائد العربـي، بيروت، نسخة مصورة ١٩٨١.
(١٦) علي حويلي: تطور التعليم في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت ١٨٧٨ ــ ١٩٤٥ رسالة ماجستير غير منشورة ــ الجامعة اللبنانية قسم التاريـخ، بيروت ١٩٧٩.
(١٧) كامل الداعوق: علماؤنا، بيروت ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م.
(١٨) كمال جرجي ربيز: رزق الله عهيد بك الايام باراس بيروت، المطبوعات المصورة، بيروت ١٩٨٥.
(١٩) لحد خاطر: الشيـخ بشارة الخوري الفقيه (١٨٠٥ ــ ١٨٨٦) مطابـع نصار ــ بيروت ١٩٥٦.
(٢٠) محمد جميل بيهم: فتاة الشرق في حضارة الغرب، بيروت ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م.
(٢١) الشيـخ محمد عبد الجواد القاياتي: نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربـي، بيروت، نسخة مصورة ١٩٨١.
(٢٢) محمد علي باشا: الرحلة الشامية، دار الرائد العربـي، بيروت، نسخة مصورة ١٩٨١هـ.
(٢٣) محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٥، ٦، مكتبة النوري ــ دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.
(٢٤) هنري غيزو (قنصل فرنسا في بيروت): بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ج ١، دار المكشوف ــ بيروت ١٩٤٩، تعريب: مارون عبود.
(٢٥) يوسف أسعد داغر: قاموس الصحافة اللبنانية ١٨٥٨ ــ ١٩٧٤، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٨.
(٢٦) Debbas, Fouad; Beyrouth, Notre Mémoires, Beyrouth 1986 (Naufal Group)..

الدوريات:

١ ــ اوراق لبنانية (بيروت) م ١، ج ٣، بيروت ١٩٥٥.
٢ ــ اوراق لبنانية (بيروت) م ٢، ج ٦، بيروت ١٩٥٦.
٣ ــ ثمرات الفنون (بيروت) ١٩٠٤.
٤ ــ ثمرات الفنون (بيروت) ١٩٠٥.
٥ ــ ثمرات الفنون (بيروت) ١٩٠٧.

الكرك - نوح



□ منظر عام لبلدة الكرك.

ودورها السياسي والحضاري في العالم الاسلامي ..

تأليف : د . حسن عباس نصر الله

مراجعة : د . حسين سلمان سليمان

بالرغم من الروايات التي تذهب بأن النبي نوح عليه الصلاة والسلام قد دفن في بلدة الكرك، حيث يوجد مزار ما يزال يعرف بـ (قبر نوح) يقصده الناس للتبرك، وبالرغم من أن البلدة لعبت دوراً بارزاً في تاريخ البقاع، فلم يتصد أي مؤرخ لدراسة تاريخها، كما أغفل ذكرها أبناؤها الذين نشأوا في ربوعها، فلم يكتب أحد من الكركيين لمحة عابرة عن مسقط رأسه، بحيث أنه لولا وجود المشهد النوحي واشتهار أمره ابتداء من القرن السابع الهجري لبات صعباً التعرف على هوية الكرك في العصور الإسلامية، مثلما ضاعت ملامح حياتها الفينيقية والرومانية. هذه الدوافع كانت سبباً في جعل د. حسن عباس نصر الله أن ينصرف عن موضوعات اللغة العربية وآدابها، إلى دراسة تاريخ بلدة الكرك نوح في العصور الإسلامية.

التسمية والموقع



كرك نوح: أي مدينة نوح، أو حصن نوح، وقيل كرك لفظة سريانية (كركو) بمعنى حصن أو معقل، وورد أيضاً بالعربية (كِرْكونَوَه) أي مدينة السلام وضبطها العرب بفتح الكاف وسكون الراء، بمعنى الجبل تمييزاً لها عن كرك الأردن بفتح الراء. أما نوح أو (نـوه) فهي اسم عبري معناه الراحة والطمأنينة أو السلام، ونيح لفظة عامية بمعنى أراح، وتنيَّح استراح. وقد يكون الاسم يعني مدينة الراحة أو حصن السلام. ويقوي هذا الظن أنها محطة قديمة في طريق القوافل الوافدة من الساحل إلى بعلبك فتدمر. وهذا أمر مألوف بالنسبة للموقع، لأن الكرك تقع على تلة عند سفح الجبل، تشرب من مياه البردوني وكانت الأدغال والغابات تتصل بها من جهة جبل لبنان، بينما يربض سهل البقاع الخصيب عند أقدامها وقد تكون هذه التسميات قد أحدثت لبساً لدى المتأخرين فأسموها (كرك نوح) نسبة إلى نبي الله نوح عليه السلام وأقاموا له مزاراً، ما زال يعرف بـ (قبر نوح)، يقصده الناس للتبرك.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه ليس هناك اتفاق بين المؤرخين حول المكان الذي دفن فيه نوح، فهناك رأي بأنه توفي بثمانين، وهي قرية بناها نوح حيث رست السفينة على جبل الجودي قرب الموصل، والثاني أنه توفي بالهند على جبل بوز، والرأي الثالث أنه توفي بمكة، والرابع ببابل (الكوفة)، والرأي الخامس بأنه توفي في «قرية في البقاع فيها قبر يقال إنه قبره» وهذا الأخير رأي سبط بن الجوزي في كتاب مرآة الزمان (١: ٢٤٤ ــ ٢٤٥).

تاريخ الكرك

ولقد دمّرت الكرك قديماً بدليل وجود هذا الضريح فيها، وهي تقع في حفرة الانهدام أو سورية المجوفة، البقعة التي ضمت قبور أوائل الأنبياء في تاريخ البشرية، منهم أبو الأنبياء شيت بن آدم (ع)، ثم نوح وحام بن نوح وإلياس وخليفته أليسع، وهناك روايات تقول إن نوحاً سكن بعد الطوفان مع أهله سهل البقاع وظل مقيماً حتى وفاته ودفن في الكرك.

وتاريخ الكرك المدون أتى متأخراً بيد أن بعض الحفريات الخاصة التي يقوم بها السكان تدل على قدم الكرك وأنها كانت عامرة في عهد الرومان واحتمت بحصن منيع وكانت نقطة وصل بين بيروت الحقوقية وبعلبك المملكة الدينية. وخضعت لسلطة بطليموس بن ميناوس ملك عنجر (خالكيس) الذي حكم البقاع وامتدت سلطته إلى بعلبك.

ثم انتقلت إلى سلطة ابن زينون Zendorus شيخ المشايخ Tetrachus وقد استمر حكمه حتى وفاته سنة ٢٠ق.م. وبما أن الكرك كانت من أعمال بعلبك وأحياناً تخضع لسلطة ملوك عنجر، فلقد تأثرت بالعبادات الوثنية، واتخذت البعل أو جوبتير إله بعلبك رمزاً لها، إسوة بزميلاتها تلك القرى القائمة على السفوح

الشرقية لسلسلة جبال لبنان، حيث وجدت تماثيل جوبتير البعلبكي Jupiter Heliopoliten في اليمونة، وقصرنبا ونيحا.. وهناك تمثال لا يزال قائماً إلى جانب الحائط الجنوبي لمزار النبي نوح، وهو من التماثيل الموجودة في هياكل بعلبك.

فالكرك كانت مدينة محصنة، ويقارب عدد سكانها خمسة عشر ألف نسمة، ولقد جرّت إليها مياه نهر البردوني، وهناك قناة رومانية، قال عنها عيسى إسكندر المعلوف، بأنها لا تزال قائمة تحت نزل الصحّة.

ولم يأت المؤرخون على ذكر الكرك في أيام الفتوحات، لكنها دخلت تحت راية الإسلام صلحاً وغدت ثغراً يرابط فيه فرسان المسلمين، ومن هناك يغيرون على الساحْل اللبناني، فيفتحون ويبيعون غنائمهم من أهل بعلبك رومها وفرسها. ويرجح أن يكون العرب هم الذين شيدوا مزار النبي نوح، ورفعوا مسجداً إلى جواره، فتوافد المؤمنون والنساك يتبركون بزيارة قبره، وأقاموا بجواره يتعبدون حيث نشأت مدرسة مبكرة للفقه الإسلامي في القرن الأول الهجري. ويرجح أن تكون البلدة قد اتخذت مكانة استقلالية، فكانت قلعة حصينة، يقيم فيها حاكم يرتفع إلى رتبة الوالي أحياناً، يرتبط بوالي بعلبك، وقد يتصل بوالي دمشق مباشرة، وإلى جانب الوالي نجد قاضياً يفصل في الدعاوى بين الناس.

ويبدو أن استراتيجية موقع الكرك الاستقلالي جذبت إليها الشيعة منذ الفتح الإسلامي بسبب وجود القبائل الموالية للإمام علي (ع) مع الجيوش التي فتحت بلاد الشام، ودخلت البقاع، فقطنتها قبائل شيعية مثل همذان وخزاعة التي تفرع منها الحرافشة، وربما زارها أبو ذر الغفاري، وبذر فيها محبة الإمام علي. وتنامت مع الزمن فضمت السادة لأن بعض قضاة الكرك، ولاتها اتهموا بالرفض وقتلوا بسبب هذه التهمة، وكثيراً ما جرد ولاة الشام جيوشهم وهاجموا الكرك وقتلوا أهلها ومشايخها بسبب ترفضهم. وحتى الإمام الأوزاعي[1] الذي درس في الكرك يبدو متأثراً بطريقة الشيعة في الرواية عن أهل البيت.

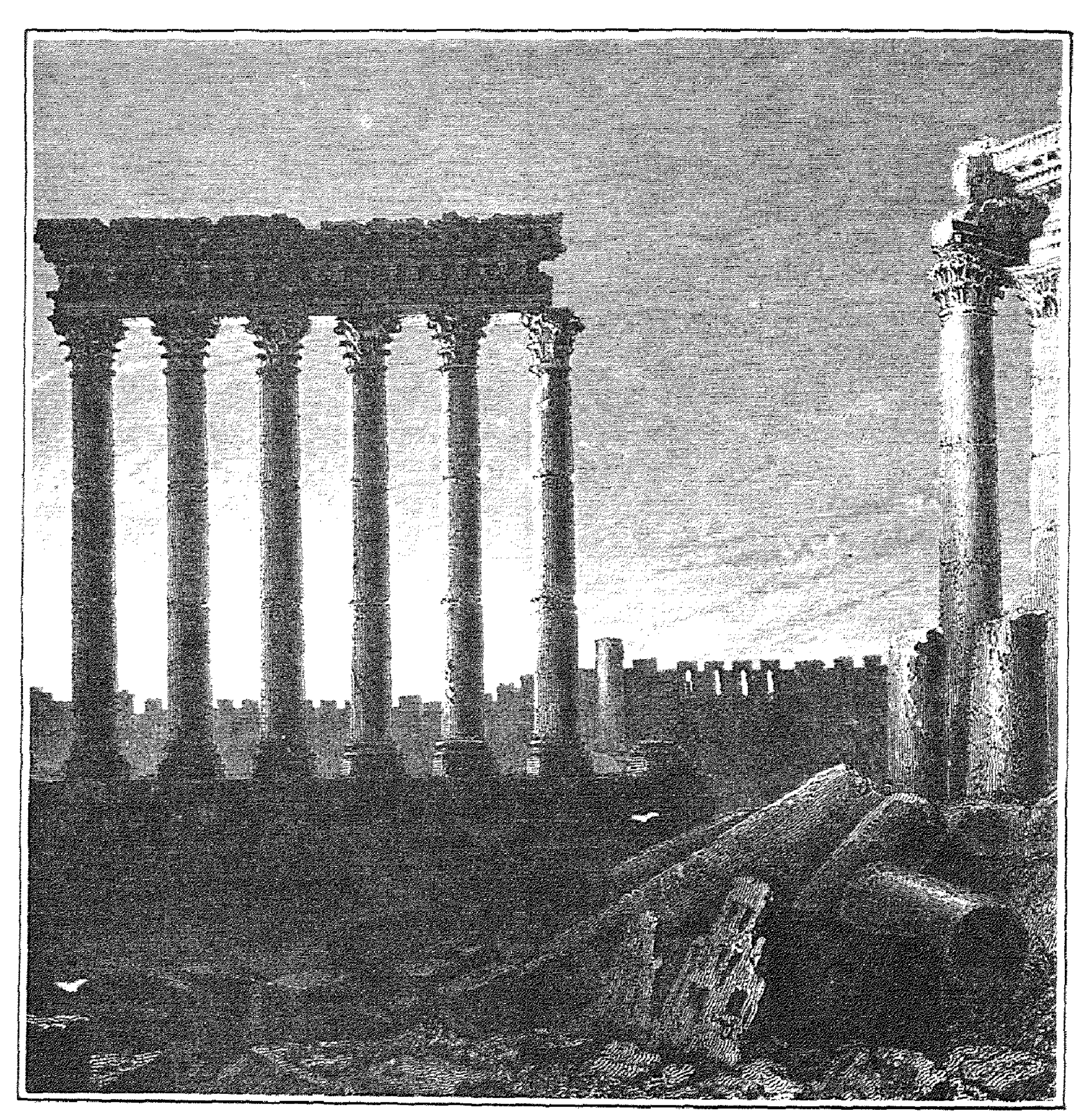
وفي العهد الزنكي، اهتم نور الدين زنكي (٥٦٩هـ) بإنشاء المدارس في دمشق وبعلبك وحماه وحلب، وعرفت بـ (النورية)، ومع أنه لم يشد مدرسة في الكرك، لكنه على الأقل دعم مدرسة الكرك القديمة القائمة في زاوية النبي نوح، كما أوقف أوقافاً على زاوية النبي نوح لكي يطعم منها الوارد والصادر. وفي حين أشار ابن بطوطة إلى أن الأوقاف المذكورة إنما أوقفها السلطان نور الدين على قبر أبي يعقوب يوسف، فإن د. حسن نصر الله يعتقد بأنه لا يصح التكهن بأن قبر نوح هو نفسه قبر أبي يعقوب يوسف، لأن ابن بطوطة ذكر الكرك منسوبة إلى نوح، بل وهم وقال قبر أبي يعقوب يوسف بدلاً من قبر نوح.

أما في العهد الأيوبي فقد اتخذت في هذه الحقبة استقلالية تامة، فغدت شبه مملكة صغيرة تحكم ولاية البقاع العزيزي نسبة إلى العزيز، ولقد فصلت هذه الولاية عن بعلبك، وأحياناً كان يجمع معها البقاع البعلبكي.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي أجريت الصدقات على زاوية النبي نوح للصرف على الوارد والصادر وغدت الكرك ثغراً مهماً يقف بوجه غارات الصليبيين الوافدة من السواحل عبر جبل لبنان. واشتهر أمرها فقصدها الزوار المؤمنون لزيارة ضريح النبي نوح (ع).

أما في عهد المماليك فتشير المصادر إلى أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري قام في العام ٦٥٨هـ /١٢٥٨م بزيارة مقام النبي نوح متبركاً، فأمر بتجديد بناء الضريح، وأولى الكرك عناية خاصة فاستمرت في عهده مركزاً لولاية البقاع العزيزي، يضاف إليها أحياناً البقاع البعلبكي ويحكمها والٍ جليل، كان يتدخل في صراعات ولاة دمشق، ويبادر مع قواته المكونة غالباً من العشائر إلى مناصرة عساكر السلطان.

وحين قدم قيتباي إلى بلاد الشام في العام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، عرج على الكرك وزار القبر النوحي، وفي عهد محمد بن قيتباي أغار عليها نايب دمشق كرتباي الأحمر ونكل بسكانها وقبض على مشايخها وقتل عدداً منهم.



□ بعلبك وآثارها التاريخية.

ولقد عرفت الكرك في العهد المملوكي ظاهرتين جديرتين بالدراسة والتدوين تكشفان عن أهمية الكرك في هذا العهد.

الظاهـرة الأولى تتمثل بمجمـوعة مـراسيم مملوكية، نقشت على أعمـدة وجدران مسجـد النبـي نوح (ع)، تختزن معلومات مفيدة، وتؤكد الإهمال المتعمد الذي نال هذه البلدة فلم تأت على ذكرها كتب المؤرخين إلا نادراً. ورغم الإهمال نتبين مكانة مرموقة نالتها الكرك، كما أن أهمية البلدة تبدو واضحة من نقش هذه المراسيم على جدران مسجدها، ومضامين هذه المراسيم تعالـج قضايا ترتبط بالسكان المحليين. فنجد مرسوماً صادراً سنة ٧٧٩هـ يلغي ارتفاع الأسعار، يليه آخر صادر سنة ٧٨٠هـ يبطل المظالم الضرائبية وينص على اسم والي الكرك، في حين يكشف مرسوم سنة ٧٩٤هـ. عن رواج صناعة النسيـج في الكرك، حتى أن بعض الولاة فرضـوا على الحياكين ضرائب باهظة، ولما احتـج الحياكون لدى المراجـع المختصة صدر قانون يلغي هذه المظلمة،ومرسوم صادر في سنة ٧٩٥ يحدد قيمة الضريبة المفروضة على المدينة. تلاه مرسوم سنة

٧٩٦ ينظم المصروفات على العنصر البشري المتواجد في مدرسة الكرك التي قامت بجوار مرقد النبي نوح، ويرينا حركة حشد من الناس تزاحموا حول الضريح، ونقرأ حروف ازدهار علمي، يضم الشيوخ والطلاب والفقراء والمؤذنين والخطباء والمجاورين من الزهاد والمتصوفة، يصرف عليهم مبلغ خمسة آلاف درهم من أوقاف النبي نوح.

والظاهرة الثانية هي بروز أسرة الحنش البدوية البقاعية، وهي أسرة قيسية الولاء شافعية المذهب، ظهرت في البقاع العزيزي في أواخر القرن الثامن الهجري. وليس هناك ما يشير إلى كيفية تمكن هذه الأسرة من تكوين ملامح نفوذها في مراحله الأولى في المنطقة، إنما قد تكون اعتمدت في ذلك على عنصر الشجاعة، وحسن السياسة في قيادة بعض عربان حمص والبقاع، ومصاهرة مشايخ القبائل أمثال جانباي البدوي أمير الشام الذي تولى بلاد حوران والمرج.

ومن المرجح أنهم كونوا، في بادىء الأمر، زعامة شعبية، وفرت لأحد رجالهم علاء الدين بن الحنش الأول لقب شيخ العشير وهو الذي يقود الفلاحين والبدو في المهمات العسكرية. ثم ارتقى علاء الدين بن الحنش الثاني إلى رتبة طبلخانة[٢]، منحه إياها السلطان برقوق يوم جرّده إلى محاربة تركمان كسروان، وبفضل خدماتهم نالوا مقدمية البقاع العزيز، وتلقبوا بالأمراء.

ويلاحظ أن كتب التراجم قد أهملت أعلام هذه الأسرة، فلم يذكرهم ابن حجر[٣] العسقلاني الذي ترجم للأعلام في القرن الثاني للهجرة وضمنهم أمراء الطبلخانة، وأغفل ذكر علاء الدين بن الحنش الذي حظي بهذه الوظيفة وقتل سنة ٧٩٣هـ، وحذا حذوه عبد الرحمن[٤] السخاوي في تراجم القرن التاسع، وأهملهم أيضاً نجم الدين[٥] الغزي في رجال القرن العاشر، وأتى على ذكرهم عرضاً مرة واحدة عندما ترجم لمنصور بن الفريخ وقال عنه «أمير البقاع العزيز بعد أولاد الحنش».

وقد يكون هذا الإهمال ناتجاً بسبب نمط الحياة التي عاشها آل الحنش، فقد حافظوا في حياتهم على تقاليد قبلية فأحبوا الترحال من بلدة إلى أخرى، فكانت إقامتهم تتبدل من بعلبك إلى كرك نوح فقب إلياس فمشغرة فصيدا. هذه الحياة المضطربة كانت سبباً في تقليص نفوذهم، إذ لم يتمكنوا من حشد قوة ضاربة، ومؤيدة تنطلق من قاعدة ثابتة. فعاش مقدموهم بين كر وفر حتى أن سلطتهم كانت تلغى نهائياً من قبل نواب دمشق. وكثيراً ما قاد النواب جيوشاً لتأديب آل الحنش المتمردين على مراسيم السلطة الشرعية اللاغية لسلطتهم.

وأقدم مصدر أتى على ذكر آل الحنش، مرسوم سلطاني صادر بتاريخ العشر الأخير من سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، ومنقوش على حجر فوق الباب الجنوبي الغربي في مسجد كرك نوح، يفيدنا أن بعلبك كانت نيابة، بينما كان البقاع مقسماً إلى عملين مركزهما كرك نوح، يدير شأنهما أبو بكر حسن ابن الحنش.

وفي العام ١٣٨٩ قامت ثورة في بلاد الشام قادها الزعيم المملوكي منطاش ضد السلطان برقوق (١٣٨٢ ــ ١٣٨٩، ١٣٩٠ ــ ١٣٩٩)، فعين ابن الحنش حاكماً على نيابة بعلبك بدلاً من نائبها الذي التحق بمنطاش. ولكن الأخير سرعان ما تمكن من السيطرة على دمشق وسمى حكاماً على مدن الأقاليم الشامية، لكن علاء الدين الحنش أبى أن يقدم له الولاء، وتقدم على رأس قواته إلى بعلبك فاحتلها وعاث فيها فساداً ونهبها. فوجه منطاش جيوشاً لمواجهتهم وإخراجهم من المدينة بالقوة، وبعد حصار استمر أربعة أشهر استسلمت المدينة صلحاً، وجرى أسر علاء الدين وعدد من أتباعه فاقتيدوا إلى دمشق، حيث نفذ فيهم جميعاً حكم الإعدام. وما لبث أن قتل ابنه علاء الدين الثاني الذي جمع قوات من عشائر القيسية بهدف الانتقام لوالده، لكن قوات منطاش تمكنت من هزيمته والقضاء عليه وعلى كل أعوانه، وكان ذلك في يوم الخميس ٢٧ شعبان سنة ٦٩٣هـ / ٣٠ تموز سنة ١٣٩١م. وبمقتله غابت أخبار بني الحنش لتظهر عرضاً في تاريخ بيروت، بذكر علاء الدين بن الحنش الثالث الذي ناصر آل بحتر أمراء الغرب. ثم توارت أخبارهم لمدة نصف قرن، وأطلت لما كان القرن التاسع

الهجري يلفظ أنفاسه بخبر يفيد أن ناصر الدين بن الحنش شارك في معركة إلى جانب نائب الشام في العام ٨٩٣هـ.

وأشهر من برز في الأسرة الحنشية في مطلع القرن العاشر الهجري، ناصر الدين محمد بن الحنش الذي يعتبر أشهر أمرائهم، وأبعدهم طموحاً، فغدا مقدم البقاع العزيز ونال نيابتي حمص وصيدا، واستطاع أن ينتزع لصهره ابن جانباي البدوي أمير الشام، بلاد حوران والمرج، وطمح إلى نيابة دمشق فأكثر من العصيان. لكن كثيراً ما ساءت علاقة ناصر الدين مع نواب المماليك في بلاد الشام، وذلك بسبب طموحاته وسعيه إلى تقوية نفوذه المحلي، وتبدل نواب الشام وجشعهم في جباية الأموال، فيضطر إلى الفرار من وجههم وبالتالي تتعرض قرى البقاع للنهب والتخريب. إلى أن كان عهد نايب دمشق سباي، فما إن وصل الآخر إلى دمشق حتى نشب الخلاف مع ابن الحنش، وحين فشلت جهوده بالقبض على الأخير، توسط أمراء دمشق في النزاع فتم الوفاق على مبلغ يدفعه ابن الحنش. فقوي نفوذ الأخير وتولى نيابة صيدا إلى جانب مقدمية البقاع، وقام في العام ٩١٧هـ بزيارة نايب دمشق الذي رحب به.

وحين قدم السلطان العثماني سليم الأول لاحتلال بلاد الشام، وقف ناصر الدين بن الحنش إلى جانب المماليك، وهرع إلى دمشق لاستقبال السلطان قانصوه الغوري الذي وفد للدفاع عن بلاد الشام، وكان ابن الحنش من جملة الأمراء الذين استقبلوا الغوري ثم قدم له ما لا يقل عن ألف دينار، وهدايا عينية من خيل وزيت وعسل ومواش وطيور، كل ذلك طمعاً برضا السلطان وتمهيداً للحصول على نيابة دمشق وحين تنامى إلى ابن الحنش مقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق، تقدم من جان بردي الغزالي الذي ضبط الأوضاع في دمشق مع فرسانه، وتطوع لحماية البلاد من حماه إلى حمص فالبقاع يدرأ عنها خطر السلطان العثماني. ولكن هذا التطوع لضبط البلاد المذكورة لم يكن بدون أي مقابل، فقد اشترط ابن الحنش على جان بردي الغزالي شرطين.

١ ـ أن يقتل جان بردي الغزالي سجينه المقدم علاء الدين بن العماد المقدسي، الشهير بابن علاق، وهو عدو لدود لابن الحنش.

٢ ـ أن يحيل الغزالي إلى ابن الحنش نيابة حمص.

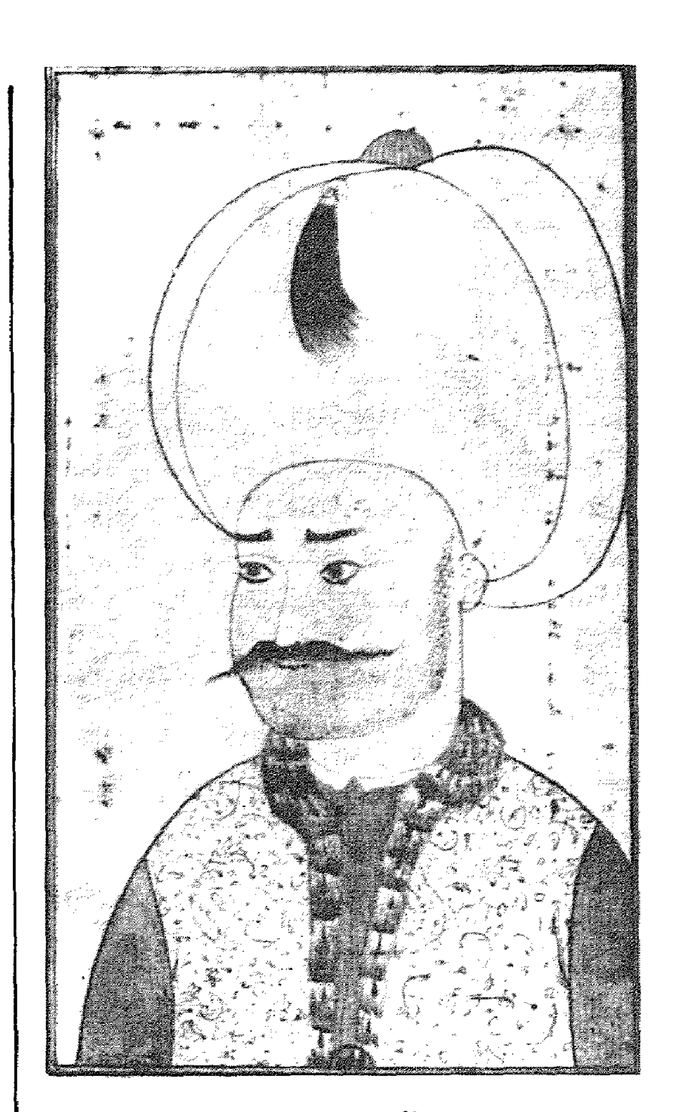
وبالفعل فقد نفذ الغزالي الشرطين المذكورين، لكن السلطان العثماني سليم الأول لم يتح لابن الحنش فرصة الاستفادة من تولي نيابة حمص، ذلك أن السلطان المذكور كان قد احتل حماه وحمص وبدأ يستعد للزحف على دمشق.

وحين دخل السلطان سليم إلى دمشق، كان ناصر الدين بن الحنش من بين الأمراء الذين قدموا على السلطان لتقديم فروض الطاعة، فرحب به السلطان وألبسه خلعة[٦] وأعطاه سنجقاً وأبقى له لقب المقدم وأقطعه عدة إقطاعات.

ومع ذلك فقد ظل ناصر الدين ابن الحنش يبدي الحنين إلى المماليك، أسياده الأول، فما ان انتقل السلطان سليم إلى مصر، استمر ناصر الدين في الظاهر يبدي ولاءه للعثمانيين، خائفاً من سلطتهم وقوتهم الفتية، لكنه كان في السر يثير الأراجيف ضدهم، كما استقبل بعض مسؤولي المماليك الفارين من وجههم.

ولم تكن هذه التحركات بخافية على العثمانيين، ولذا فقد استاء السلطان العثماني ونقم على ناصر الدين الحنش، فأمر في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٩٢٣هـ بتجريده من مناصبه، وأعطاها للأمير محمد بن قرقماس، فولاه نيابة بيروت وصيدا، وأن يكون مقدماً على البقاع وما يتبعها، وأشاع بأنه ينوي التوجه إلى البقاع للقبض على ابنه الحنش وعلى من عنده من المماليك الفارين. ولكن ما إن ترامى إلى علم ناصر الدين بأن السلطان قد حرك قوات للقبض عليه، حتى توارى واختفى عن الأنظار.

وفي الخامس من صفر ٩٢٤هـ / ١٦ شباط ١٥١٨ م غادر السلطان سليم دمشق عائداً إلى استامبول، بعد أن ترك حاكماً على بلاد الشام جان بردي بن عبد الله الغزالي، من زعماء المماليك في بلاد الشام سابقاً. فتشجع ناصر الدين بن الحنش وعاد إلى الظهور على المسرح السياسي لبلاد الشام مجدداً، وحاول



□ **السلطان سليم الأول**

التقرب من نايب الشام الغزالي، فأرسل وفداً لمقابلة الأخير طالباً منه أن يعفو عنه ويسمح له بالعودة إلى ممارسة وظائفه السابقة. وتظاهر الغزالي بالموافقة على إصدار عفو عن ناصر الدين وإعادته إلى وظائفه السابقة، لكنه اشترط مقابل تنفيذ ذلك، أن يستسلم له الزعيم الحنشي ويقدم الخضوع والولاء. وبالفعل انطلت الحيلة على الأخير، وتمكن الغزالي من القبض عليه، فأمر بقتله مع شخص آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش، وأرسل رأسيهما إلى السلطان سليم الذي كان لا يزال في حلب، وهو في طريقه إلى استامبول.

وبنهاية ناصر الدين بن الحنش أحال جان بردي الغزالي حكم البقاع إلى والٍ جديد يدعى يوسف بن سنان الرومي، لكن الغزالي ما لبث أن أقاله من منصبه في شهر ذي القعدة سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م، ذلك أن وفاة السلطان سليم الأول شجعت ناصر الدين الغزالي على الاستقلال بحكم ولاية الشام عن السلطنة العثمانية، ورأى أن تحقيق ذلك يتطلب التفاف العصبيات المحلية في المنطقة إلى جانبه، فأصدر أمراً بجعل أحمد بن ناصر الدين الحنش والياً على البقاع، وطلب من الأخير مساندته في الثورة على العثمانيين. واستجاب الأخير للعرض وقاد عربانه وقاتل إلى جانب الغزالي، كما شارك رجال أحمد الحنش في حصار الغزالي لمدينة حلب.

ولكن بهزيمة جان بردي الغزالي في ٢٦ صفر ٩٢٧هـ / ٦ شباط (فبراير) ١٥٢١م وما تلى ذلك من مقتله وإرسال رأسه إلى الآستانة، اختفت أخبار المقدم أحمد بن الحنش، وغابت أخبار بني الحنش مدة خمسين سنة، لتظهر في وثيقة عثمانية تفيد بأن محمد بن الحنش هو أحد زعماء التيمار[٧]، وبأنه منح خمس حاصلات قرية رقادة في نيابة كرك نوح، بالإضافة إلى مزرعتي تل ابن حسين، ودير الاماسي في الناحية نفسها. ثم غابت أخبار آل الحنش وانتهى دور هذه الأسرة التي عاشت بين ظهور وأفول، ولم تتمكن من فرض سيطرتها بشكل فاعل ولم تعرف حياة الاستقرار.

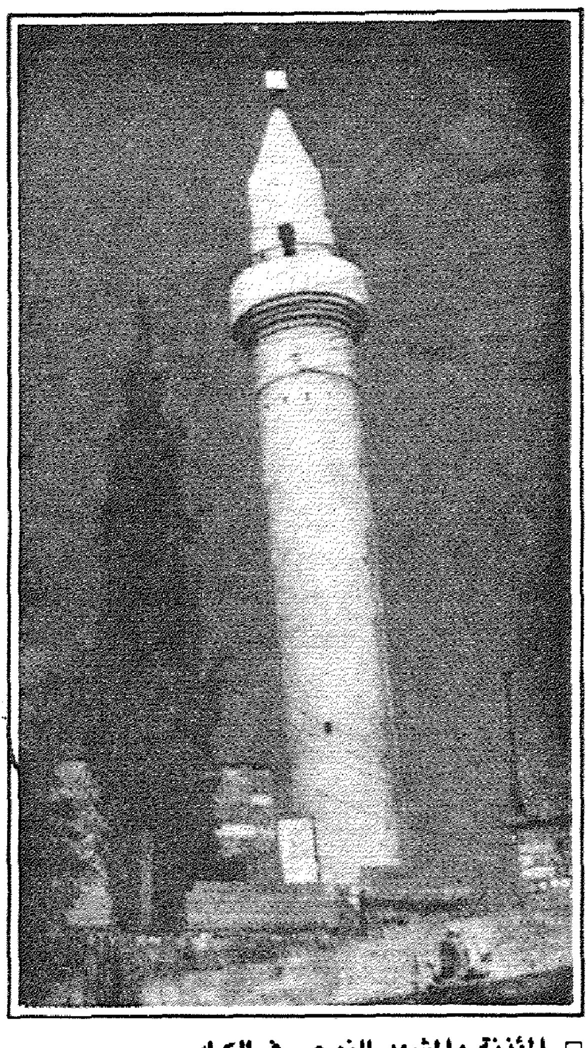
وبانتهاء سلطة آل الحنش انتقل الحكم في البقاع العزيز إلى آل فريخ البدو من عرب البقاع، ومنصور بن الفريخ هو أول من حاز منصب أمير في هذه الأسرة، حيث كوفىء على ضبطه الأمن في البقاع ومطاردته اللصوص وقطاع الطرق فعهد إليه بحكم البقاع العزيز، وقاتل الدروز وألبَّ عليهم إبراهيم[٨] باشا الذي قاد حملة اجتاحت الشوف وأجبرت الأمير قرقماز المعني إلى الاختفاء في كهف حيث قضى مختنقاً. ويرجح أن منصور بن الفريخ لم يقم في الكرك نوح بل تحول عنها إلى قب إلياس وبوارش حيث بنى قصوره وقلاعه، ولقد قبض عليه والي دمشق مراد باشا بدسيسة من الأمير فخر الدين المعني، وقتله نهار الثلاثاء ١٣ ربيع أول سنة ١٠٠٢ / ٧ كانون الأول ١٥٩٣، كما قضي على ابنه قرقماز بعد ذلك بعام نتيجة مؤامرة أعدها أمير جبل الدروز فخر الدين المعني وحاكم بعلبك موسى الحرفوش، فانتقل حكم البقاع العزيز وكرك نوح

إلى الأسرة الحرفوشية.

ويعود تاريخ تواجد آل الحرفوش في كرك نوح منذ عهد آل الحنش واستمر في عهد منصور الفريخ، ولقد نما نفوذهم في هذه البلدة مما ساعدهم على تسلم زمام الحكم في بعلبك ومشغرة فيما بعد، ولقد حشد فيها الأمير يونس الحرفوش عدداً من رجاله وسكبانه[٩] لتكون ثغراً يدرأ خطر المعنيين عن امارة الحرافشة، وفي العام ١٦٦٢ وفيما كان يونس الحرفوش غائباً عن الكرك هاجمها الأمير فخر الدين المعني وأمر رجاله بنهبها وإحراقها. لكن أمراء آل الحرفوش عادوا وجددوا بناءها، فبفضل موقعها الهام على حدود امارتهم، كانت بمثابة ملاذ أمرائهم عند حلول الملمات، كما كانت تخرج من أيديهم عندما تغضب السلطات العثمانية عليهم، فتوعز والي الشام أن يمنح حكم بعلبك والبقاع إلى أمراء محليين، أو ولاة يدفعون مبالغ طائلة من المال.

ناحية كرك نوح

وكما أشرنا فإن الكرك كانت مركز ولاية البقاع العزيزي وكان يقيم فيها والٍ في حين لم يكن يقيم في ولاية البقاع البعلبكي، نسبة إلى قرية بعلبك، والٍ، ذلك أن بعلبك كانت نيابة في العهد المملوكي. وأمدتنا دفاتر الطابو العثمانية بأسماء القرى التابعة لناحية كرك نوح، مع إحصاء لعدد الأسر (خانة) والعازبين (مجرد) وأئمة المساجد (إمام) والخطباء والسادة الأشراف، وتميز بين النصارى والمسلمين مع ذكر أصحاب العاهات العاجزين عن العمل. وهذه الإحصاءات تكشف عن تبديل في أسماء بعض القرى، فعلى سبيل المثال فإن براق البصل هي (رياق) اليوم، وأشرفية هي (علي النهري)، وبيت نائل (بدنايل). وهناك قرى اندثرت واختفت مثل: بحوشين التي تحولت إلى كروم وحقول في خراج الكرك. كما يتبين بأن القرى التالية كانت مشتركة بين المسلمين والمسيحيين، وتحولت مع الزمن إلى قرى مسيحية صرفة: دير الأحمر، عيناتا، الفرزل، وكان في هذه القرى مساجد وخطباء، وكانت الفرزل تضم إمامين مع سيد شريف، في حين كان سكان زحلة جميعهم من المسلمين.



□ المئذنة والمشهد النوحي في الكرك.

الحركة العلمية في الكرك

ويستشف من مصادر ترجمة الإمام الأوزاعي، أنه نشأت في الكرك مدرسة علمية مبكرة قامت بجوار ضريح النبي نوح، كان يتواجد فيها الزوار والمجاورون والطلاب، ولقد غابت أخبار هذه المدرسة في القرون الأولى ولم تلق اهتماماً في العهد الزنكي حيث صدرت مراسيم إنشاء المدارس (النورية) في حدود سنة ٥٥٢هـ والسنوات التي تلتها، في دمشق وبعلبك وحمص وحماه وحلب، وربما كان التجاوز بسبب تشيع أهل الكرك. وفي عهد المماليك استعادت الكرك نشاطها وكثر الطلاب، الذين كانوا يستفيدون من الأوقاف الوفيرة التي حبست على مؤسسة الكرك، مقام النبي نوح والمسجد والمدرسة، ولقد سكتت المصادر عن هذا النشاط

أيضاً، مثلما سكتت مصادر العصور السابقة. بيد أنه يستخلص من مرسوم صدر عن السلطان برقوق سنة ٧٩٦هـ، ونقش على عمود داخل مسجد الكرك ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري أعلاه الله تعالى وشرّفه، أن يُستمر ما شملت الصدقات الشريفة: الخطيب والمؤذنين والقراء والطلاب والمجاورين بحرم سيدنا نوح عليه السلام من مال البلد المذكور وهو في كل سنة خمسة آلاف درهم وينقش ذلك عند رأس نبي الله...».

هذا النص يكشف عن وجود حركة علمية ناشطة ضمت الخطباء والمؤذنين والقرّاء والطلاب والشيوخ والمتصوفة والزهاد* من المجاورين، وتواجد هؤلاء في الكرك يعني، أن ازدهار البلدة، ورواج الثقافة، لم يكونا وليدا الساعة. فالمرسوم نفسه يؤكد قدم هذا النشاط باستخدامه كلمة (يُستمر)، ويسعى بذلك إلى الحفاظ على استمرارية تراث قديم وموروث.

ولقد ازدهرت مدرسة الكرك في القرنين العاشر والحادي عشر وبلغت درجة مرموقة، من حيث عدد العلماء والطلاب، وأنواع العلوم التي تُعطى وطرق التدريس، فقصدها طلاب المعرفة من مختلف الأقطار وخصوصاً من جبل عامل، أمثال الشهيد الثاني زين الدين الجبعي الذي رحل إلى الكرك طلباً للأخذ عن مشايخها يرافقه الشيخ حسين بن عبد الصمد والد البهاء.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن النهضة العلمية التي شهدتها الكرك في القرنين العاشر والحادي عشر، لم تقتصر نتائجها الإيجابية على الكرك والبقاع، بل اندفعت تياراتها الزاخرة بالعلوم، تجتاز البلاد العربية إلى إيران، حيث غادر قرابة ثلاثين عالماً مسقط رأسهم الكرك، على امتداد قرنين، ودخلوا بلاد إيران، حيث كانت قد قامت في تلك البلاد الدولة الصفوية، واحتاجت إلى فقهاء لتعليم الناس أمور دينهم وتسلم القضاء. ولقد استقر المهاجرون الجدد في إيران، ونالوا لقب التبريزي أو الأصفهاني أو القزويني إلى جانب لقبهم الأساسي الكركي، وأخذوا على عاتقهم تنظيم الدولة الجديدة على أسس الإسلام الحق، ونال علماء الكرك مراتب عالية في الدولة الصفوية منها: الأمير وشيخ الإسلام في أصفهان ونائب الإمام والمفتي ومروّج المذهب وشيخ الإسلام في طهران.

كما لعب الكركيون دوراً فعالاً في تنظيم الحياة العلمية والثقافية والاقتصادية والعمرانية في إيران إذ فتحوا المدارس، وصرفوا على الطلاب، ونظموا الخراج والقضاء، وضبطوا اتجاه القبلة في أكثرية بلاد العجم وهندسوا المساجد والمآذن والقباب، وحثوا الناس على الالتزام بالدين، وألغوا الكتب وردوا على رهبان النصارى.

فالمحقق الكركي الذي ظهر في (هرات) سنة ٩١٦هـ، ودخلها مع الشاه طهماسب، قام بوضع الأسس الشرعية الدستورية لدولة الصفويين، ولم يفرق بين السياسة والدين، بل قال بالتلازم بين شؤون الدين وشجون السياسة. ووضع خطة العمل لبناء دولة إسلامية، دستورها الشرع الحنيف. فعمل بمبدأ التسامح، ورفض العنف الذي يعتمده الملوك والحكام لبسط نفوذهم، وقهر المعارضة. فدعا إلى الاحتكام إلى العقل والمناظرات.

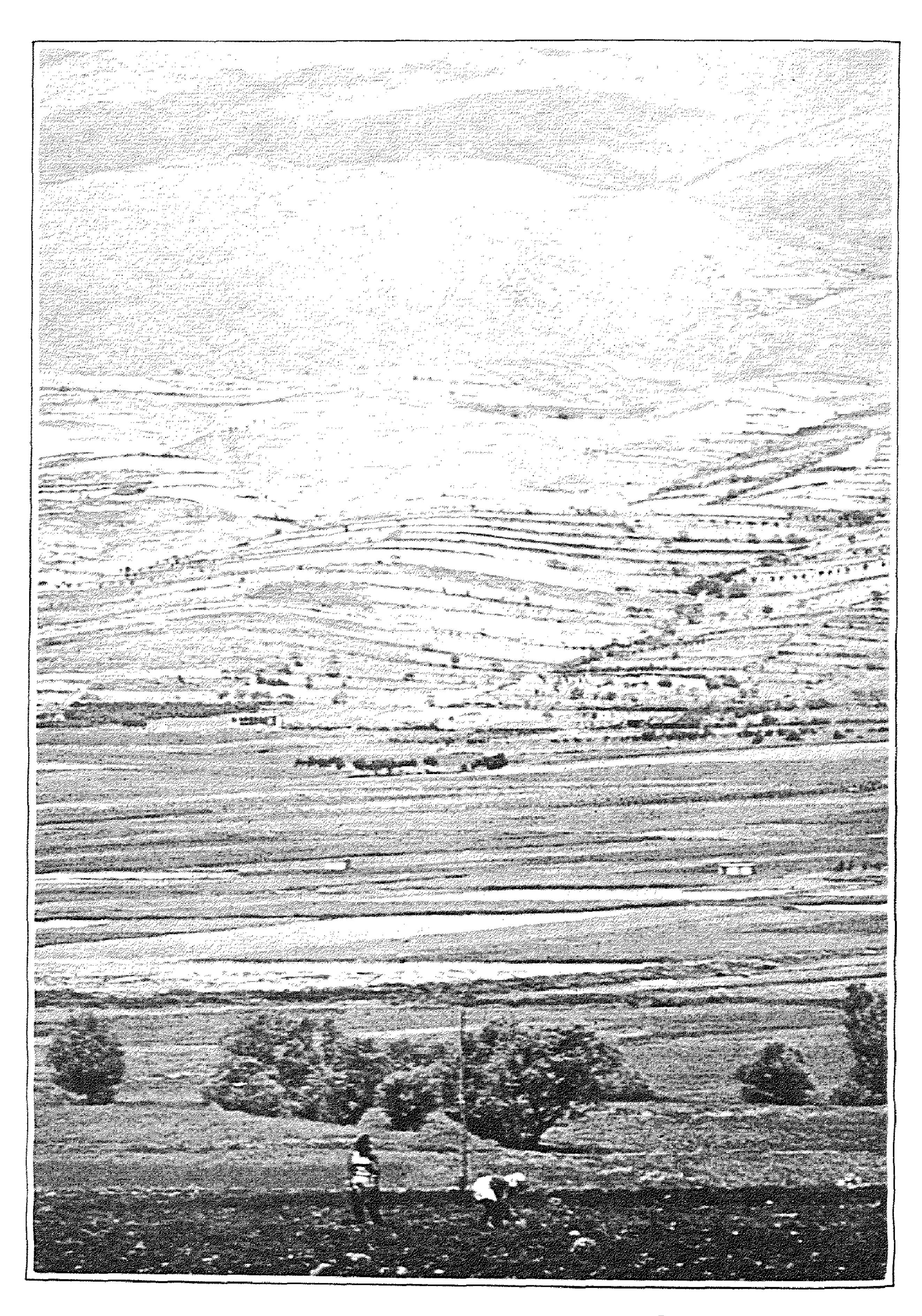
وكتب إلى علماء الكرك وجبل عامل وحثهم على النهوض إليه، ولما توفر لديه عدد من رجال الدين المخلصين أخذ يوجه النشاط الديني في إيران كلها، من خلال مجموعة من العلماء مؤمنة ومدربة على العمل الاجتماعي والسياسي.

ويمكننا أن نرد ازدهار الحركة العلمية في الكرك خلال هذه الحقبة إلى أمور منها:

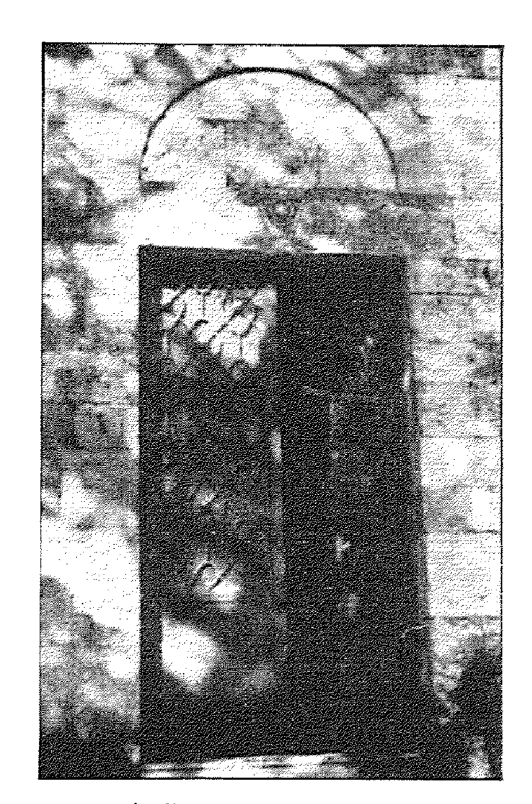
١ ـ انتهاء حكم المماليك الذين لاحقوا الشيعة وشردوهم، وقد تمت آخر حملة ضدّهم في عهد محمد بن قيتباي في العام ٩٠٤هـ، إذ قتل نائبه على الشام كربتاي الأحمر عدداً من مشايخ الكرك.

٢ ـ انتقال السيطرة في البقاع من أسرة آل الحنش السنية إلى الأمراء الحرافشة الشيعة، وبروز بعض العلماء من الحرافشة.

٣ ـ الأوقاف الخيرية التي قدّمها الأمير محمد بن ناصر الدين الحنش إلى النبي نوح في العام ٩٥٠هـ، واشترط أن تصرف على المجاورين والعابدين.



□ سهل البقاع بخيراته الكبيرة.



□ الباب الجنوبي للمسجد ــ الكرك

المعالم الأثرية

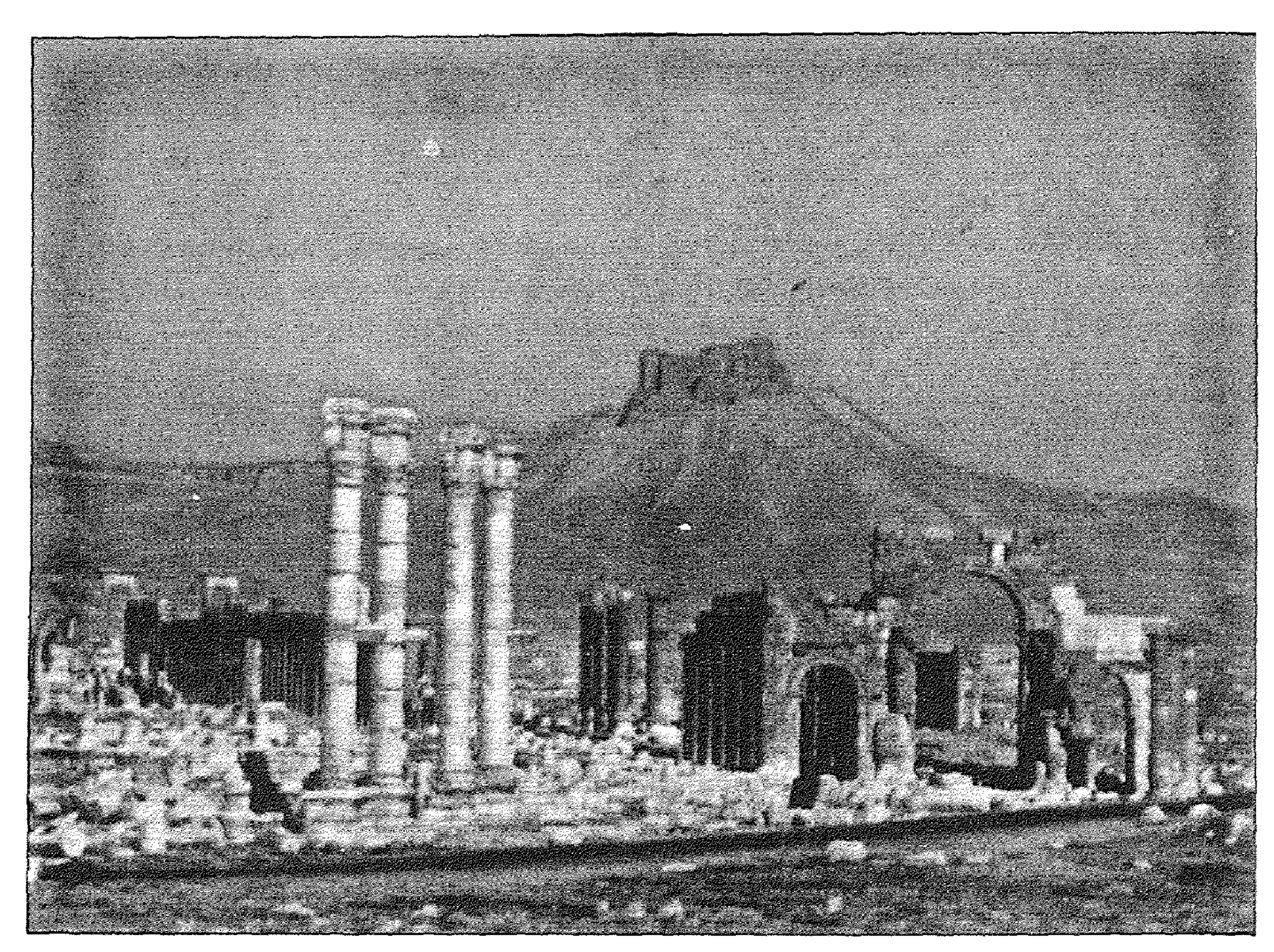
لا تزال الكرك القديمة مدفونة تحت التراب، والحفريات الخاصة التي يقوم بها السكان تكشف أحياناً عن مدينة رومانية مسوّرة، جرّت إليها مياه البردوني وصبت في خزانات، ثم انطلقت في قنوات فرعية كانت تستخدم لتوزيع المياه على المنازل والأحياء. وفي صحن المسجد تمثال حجري منقوش وهو من نوع التماثيل الموجودة في هيكل باخوس في بعلبك، كما وجدت في البلدة كتابات رومانية تدل على أن الكرك كانت مدينة رومانية محصنة.

ويعتبر مزار النبي نوح من أهم معالم البلدة الأثرية، وهو ضريح حفر في الصخر، يمتد أربعين ذراعاً، إلى قرابة ثلاثين متراً عليه بناء قديم رمم مراراً وقد وصف المقام الرحالة عبد الغني[١٠] النابلسي الذي زار بعلبك والبقاع في العام ١١٠٠هـ/١٦٩٨م. قال: «... فوق قبره جبلون من الخشب بمنزلة السفينة المقلوبة، وقد صفت فوقها الكراميت من الفخار المشوي كأسطحة بلاد الروم، وحول القبر درابزينات منصوبة، وذلك القبر في صحن الجامع المبلط بالأحجار، وحول ذلك الصحن جدران الجامع مبنية بالحجارة المنحوتة. وفيها شبابيك الحديد تطل من العلو على تلك المروج والأقطار، والجامع مبني مع القرية فوق الجبل، وفيه محراب ومنبر، وله منارة لطيفة فوق رأس القبر، بها ذلك الحسن اكتمل، وربما قال مؤذنها مكان حي على الصلاة، حي على خير العمل.

وفي طرف الجامع قبة مبنية من الحجارة المنحوتة، وتحت القبة فسقية يجري فيها الماء من ماء القرية، تطل تلك القبة على تلك الجهات المنحوتة».

وعلى الجانب الغربي من المزار قام المسجد، وطوله أربعة عشر متراً وعرضه عشرة أمتار، له محراب جميل، وبوابتان قديمتان في الجدار الجنوبي، الأولى عن يمين المحراب والثانية عن يساره، وحجارتهما متوسطة الأحجام ومنحوتة تعلوهما كتابات قديمة لكنها مهشمة. وله بوابة ثالثة في الجدار الشرقي تكون مدخله الحالي وتفضي إلى الصحن المبلط، وفيه صفان من الأعمدة كل صف يتكون من عمودين الأول عن يسار المحراب عليه كتابات ونقوش من عهد المماليك، هي عبارة عن مراسيم تتعلق بالأوقاف. ويستنتج من وصف النابلسي للمسجد القديم أن التعديلات قد أصابته مع الزمن، لقد ألغي المنبر، كما ألغيت المئذنة القديمة التي كانت تنتصب في زاويته الشمالية عند رأس القبر، وتحول مدخلها إلى خزانة صغيرة، ونقلت إلى طرف المقام من الجهة الشرقية (عند اقدام القبر). هذه المئذنة الشاهقة استخدمت أيام السلم لإعلان الآذان، لكنها اتخذت أيام الحروب، معقلاً يتحصن به المدافعون عن القرية. أما جدران الصحن وشبابيكه والقبة والفسقية فقد اندثرت جميعها، حتى أن الماء الجاري قد جف وعلى الأرجح أن يكون الجامع اتخذ شكله الحالي بعد زيارة النابلسي بربع قرن تقريباً.

وكما سبق واشرنا فإن المكانة التي احتلها مزار النبي نوح في نفوس المؤمنين، والحكام دفعتهم وفرضت عليهم تقديم الصدقات والهبات، تصرف على الزهاد والمجاورين. وتوالت الوقفيات مع الزمن، ابتداء من تنكز الحسامي في العام ٧٣١هـ، حتى وقفية الأمير ناصر الدين الحنش



□ آثار مدينة تدمر الجميلة

المؤرخة في الثاني والعشرين من شهر رجب سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٣م، وضمت كثيراً من الطواحين والبساتين والحقول... واشترط أن تصرف على عمارة النبي نوح، وأماكنه، وتنويره وفرشه، ومطبخه لإطعام المجاورين والواردين والمنقطعين والمتولي والناظر، وأرباب الشعائر والإمام والخطيب والمؤذنين والخدم.

أما من حيث الحياة الصحية فلم تذكر المصادر دوراً للاستشفاء في الكرك، وكل ما ورد ذكره عن أحد أعلامها الشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي (١٦٠٣ ـ ١٦٦٥)، قيل إنه اشتغل بالتطبيب، ولقب بالحكيم لأنه كان يداوي المرضى. ومع أنه رحل إلى إيران والهند، فقد مارس الطب في مسقط رأسه الكرك وترك مؤلفات طبية أشهرها:

١ ـ كتاب الطب الكبير.

٢ ـ كتاب الطب الصغير.

وهكذا أتيح لبلدة الكرك نوح، أن تلعب دوراً سياسياً وحضارياً في تاريخ المنطقة والعالم الإسلامي، بحيث لم يقتصر دورها على أن تكون مركزاً إدارياً للبقاع العزيزي، وإنما أيضاً مشعلاً فكرياً حمله أبناؤها حيثما حلوا لكشف ظلمات الجهل.

تلك ملامح عامة لأهم ما جاء في دراسة د. حسن نصر الله عن تاريخ كرك نوح، وفي الواقع فقد تمكن الباحث من خلال هذه الدراسة القيمة أن يسد فراغاً في المكتبة التاريخية. فالكتابات عن تاريخ مدن وقرى البقاع هي نادرة للغاية، بسبب صعوبة جمع المادة العلمية التي يجب أن تتوفر بين يدي الباحثين، ذلك أن معظم المصادر الأجنبية والمحلية التي تناولت تاريخ لبنان في مختلف عهوده، إنما ركزت على تاريخ المناطق الساحلية والمرتفعات الغربية المطلة على البحر، في حين أهملت للغاية تاريخ المناطق اللبنانية الداخلية.

وهناك بعض الملاحظات التي بدت لنا من خلال قراءتنا «تاريخ كرك نوح» سوف نحاول إبرازها لكي يتسنى لهذا العمل الفكري أن يصل

إلى درجة الكمال، إذا أعيد طبعه للمرة الثانية.

١ ــ أن أسلوب كتابة هذه الدراسة جاف وغير متماسك البنيان وتحتاج الموضوعات التي عالجها المؤلف إلى ربط.

٢ ــ هناك تكرار واضح لكثير من الموضوعات، كما أنه كان بإمكانه التخلص من كثير من الاقتباسات الواردة في النص وإعادة كتابتها بأسلوبه الخاص.

٣ ــ هناك الكثير من المصطلحات التي ترد في النصوص تحتاج إلى إيجاد تفسير لها.

٤ ــ التاريخ بالسنة الهجرية يجب أن يشير إلى ما يقابله بالسنة الميلادية، وهذه الناحية غابت عن كثير من الموضوعات، فهو حيناً يؤرخ بالتاريخ الهجري ويشير إلى ما يقابله بالتاريخ الميلادي وأحياناً أخرى يهمل هذه الناحية إهمالاً تاماً.

٥ ــ لقد عاد د. نصر الله إلى أمهات المصادر الأولية أثناء إعداد هذه الدراسة ولكن غابت عنه بعض المصادر الأولية الأخرى سوف نحاول أن نذكرها له مثل مينادوا(١١) والدويهي(١٢) والبوريني(١٣) وابن سباط(١٤)، ومن المراجع المهمة هناك بحث أعده د. كمال الصليبي وفرنسيس هورس(١٥) عن آل الحنش وأهميته بأنه تمكن من العودة إلى تقارير قناصل البندقية الذين كانوا متواجدين في مدينة دمشق أثناء الفتح العثماني لبلاد الشام، لذا فهذا البحث يلقي أضواء جديدة على أسرة آل الحنش والدور الذي لعبته خلال السنوات الأولى من الحكم العثماني لبلاد الشام. كما أن هناك رسالة دكتوراه عن آل الحرفوش وغيرهم من الأسر الشامية، وهي في غاية الأهمية نظراً لأنها أمدتنا بمعلومات جديدة على ضوء مصادر محلية وعثمانية وأجنبية معاصرة للفترة موضوع البحث(١٦).



الحواشي

(١) الإمام الأوزاعي. هو عبد الرحمن بن يحمد الأوزاعي، أجمعت المصادر القديمة على أنه ولد في بعلبك سنة ثمان وثمانين، ونشأ في البقاع في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد وتأدب بنفسه. ويميل د. حسن نصر الله إلى الاعتقاد أن الإمام الأوزاعي نشأ في حاضرة البقاع (كرك ــ نوح) وعاش مع أمه من الصدقات التي تمنح للمجاورين من الزهاد والمتصوفين وطلاب العلم. انظر ص ٨٣ من تاريخ كرك ــ نوح؛ في حين يذكر الشيخ طه الولي في مقالة عن الأوزاعي نقلاً عن مقال لمحمد كرد علي بأن الإمام الأوزاعي ينسب إلى قرية الأوزاعي في قلب دمشق على مقربة من باب الفراديس **المقاصد** (١:٢١ــ ٢٩) كانون الثاني (يناير) ١٩٨١؛ ويذكر صالح بن يحيى بأن مذهب الإمام الأوزاعي عمل به بالشام نحو مائتي سنة، وعمل به في الأندلس ما يقارب الأربعين سنة، ولقد توفي الإمام الأوزاعي في منزله وزاويته في باطن مدينة بيروت (أول سوق الطويلة حالياً)، ولقد دفن في قرية حنتوس المعروفة بمنطقة الأوزاعي حالياً. لمزيد من المعلومات انظر: حسان حلاق. اوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت، ١٩٨٥، ص (١٠٣ ــ ١٠٤)؛ داوود كنعان. بيروت في التاريخ، وطبعة عون، بيروت، ١٩٦٣، ص ١٩ــ ٢٠.

(٢) الطبلخانة، لفظة فارسية الأصل بمعنى الطبل، وهي في العهد المملوكي لقب كان حامله برتبة أمير اربعين ومقدم مائة، وكان يحق له ان تدق الطبول له لرفعة مقامه، وفي العهد التركي بطلت عادة دق الطبول أمام منزل الأمير الطبلخانة، وبقي استخدام اللفظ عرفياً.

(٣) انباء القمر بأنباء العمر، دمشق، ١٩٦٣؛ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت.

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، ١٩٦٦.

(٥) الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، دار الآفاق، بيروت؛ لطف السمر وقطف الثمر، دمشق، ١٩٨١.

(٦) الخلعة: سترة ثمينة من فرو السمّور كانت توجهها السلطة الحاكمة لمن تعهد إليه بأحد المناصب، وهي بمثابة الأوسمة في عصرنا، نوعاً من وسائل الترغيب والتحذير او من علامات الرضا والتقدير من السلاطين والولاة.

(٧) التيمار: هي إقطاعات عسكرية كانت تمنحها السلطات العثمانية في الارياف لقوات تعرف اصطلاحاً باسم «السباهية»، وكان أفرادها يحصلون على رزقهم من هذه الإقطاعات. وكانت قوات السباهية على مراتب، أعلاها رتبة يعرف بالزعيم، وكان يمنــح إقطاعاً يطلق عليه اسم «زعامت»، والمردود السنوي لهذا الإقطاع لا يقل عن عشرين الف اقجة، ثم التيماري ولا يقل مردوده عن ستة آلاف اقجة. وكان على التيماري واجبات تجاه تيماره فنجده يشرف على فلاحة جميــع الأرض المقطعة له، واستصلاح العاطل منها، وعليه أيضاً أن يمد الفلاحين بالبذار اللازم وتقديم بعض المساعدات الأخرى. وكان التيماري يحصل على نسب معينة من محصول تيماره تتراوح بين ثلث المحصول أو ربعه أو خمسه أو سدسه وكان على التيماري واجبات تجاه الدولة منها الحضور شخصياً إلى ميدان القتال إذا طلب منه ذلك، وعليه أن يحضر معه عدداً من الأتباع يختلف عددهم حسب ريــع التيمار. لمزيد من المعلومات انظر: نوفان الحمود. العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابــع عشر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، ص (٥٦ــ٥٧).

(٨) هناك إجماع من المؤرخين بأن حملة إبراهيم باشا في العام ١٥٨٥ التي ادت إلى نهاية الأمير قرقماز المعني، إنما كانت بسبب نهب اللصوص في جون عكار لقافلة «خزنة مصر» وهي متوجهة إلى الآستانة عن طريق الساحل الشامي، وأول من أشار إلى ذلك كل من: أسطفان الدويهي. تاريــخ الأزمنة، ١٠٩٥ ــ ١٦٩٩، نشرة فرديناند توتل، بيروت، ١٩٥١، ص ٣٨٤: طنوس الشدياق. كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، حققه فؤاد أفــرام البستاني، بيــروت، ١٩٧٠، ص (٢٥١ ــ ٢٥٢): حيدر الشهابــي. تاريــخ الأمير حيدر الشهابــي، القاهرة، ١٩٠٠، ص ٣٨٤. لكن المصادر المعاصرة لحملة إبراهيم باشا على الشوف، لا تربط بين هذه الحملة وأي حادث معين، ناهيك بحادثة جون عكار. وإنما السبب الحقيقي لهذه الحملة انتشار الأسلحة النارية البعيدة المدى لدى دروز المرتفعات الجبلية اللبنانية والتي كانت احدث من تلك التي مــع القوات العثمانية في بلاد الشام، وتمنــع الأهالي عن دفــع الضرائب المتوجبة عليهم. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر الدراسة التي أعدها د. عبد الرحيم أبو حسين الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت:

Abu Husayn, Abdul-Rahim. Provincial LeaderShips in Syria, 1575-1650, American University of Beirut, 1985. pp. (78-80).

(٩) السكبان: هم عناصر محلية شابة من فلاحي الأناضول وبدوها، ممن لديهم القدرة على استخدام الأسلحة النارية، كانت السلطات العثمانية تجمعهم لمساعدة جيشها على الجبهة الأوروبية. وبعد انتهاء فترة تعاقدهم يسرحون من الخدمة، فيبدأون في البحث عمن يستأجرهم من جديد وذلك لتأمين عيشهم، فانخرطوا في خدمة الأمراء المحليين، الذين كانــوا بحاجة إليهم للوقوف امام جيش الدولة العثمانية، وإذا ما وجد السكبان المال الوفير عند هؤلاء الأمراء، فهم الخدام الأوفياء. ولذا فقد استخدمهم المعنيون وآل الحرفوش وغيرهم.
محمد نوفان الحمود. العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابــع عشر الميلاديين، دار الآفاق، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٧ ــ ١٥٤.

(١٠) حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز، المعهد الألماني، بيروت، ١٩٧٩.

(١١) Minadoi, Giovanni. Historia della Guerra Fra Turchie persiani, Venetia , 1594.

(١٢) الدويهي، أسطفان. تاريــخ الأزمنة، ١٠٩٥ ــ ١٦٩٩، نشرة فرديناند توتل، بيروت، ١٩٥١.

(١٣) البوريني، الحسن. تراجم الأعيان من أبناء الزمان، نشرة صلاح الدين النجد، دمشق، ١٩٥٩ ــ ١٩٦٣.

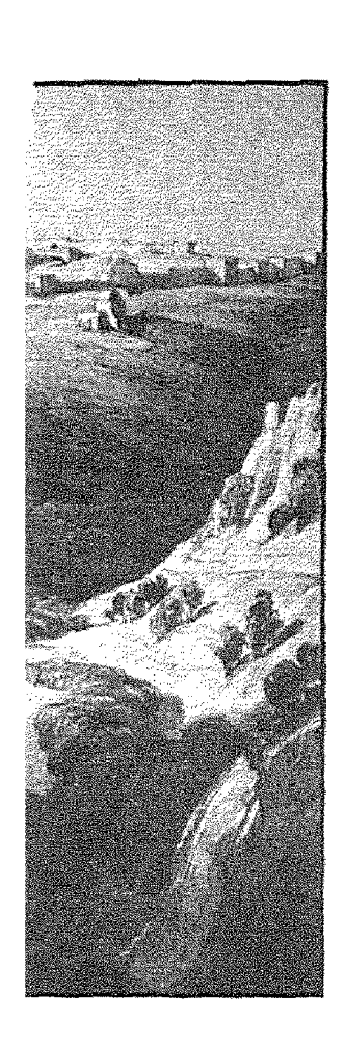
(١٤) ابن سباط، حمزة. صدق الأخبار، يعرف أيضاً بتاريــخ ابن سباط، مخطوط مسجل في مكتبة بافت في الجامعة الأميركية تحت رقم MS/956.9.

(١٥) Hours et Salibi, Francis et Kamal. Muhammad ibn al-Hanas, Muggadam de la Biqa, 1499 —— 1518: Un épisode peut connu de l'histoire libanaise, Mélanges de l'université Saint-Joseph, XLIII.

(١٦) Abu-Husayn, Abdul-Rahim. Provincial Leaderships in Syria 1575-1650, American university of Beirut, 1985.

● نصيحة الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى الوليد:

«إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه، ثم يشهد عليه ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك».



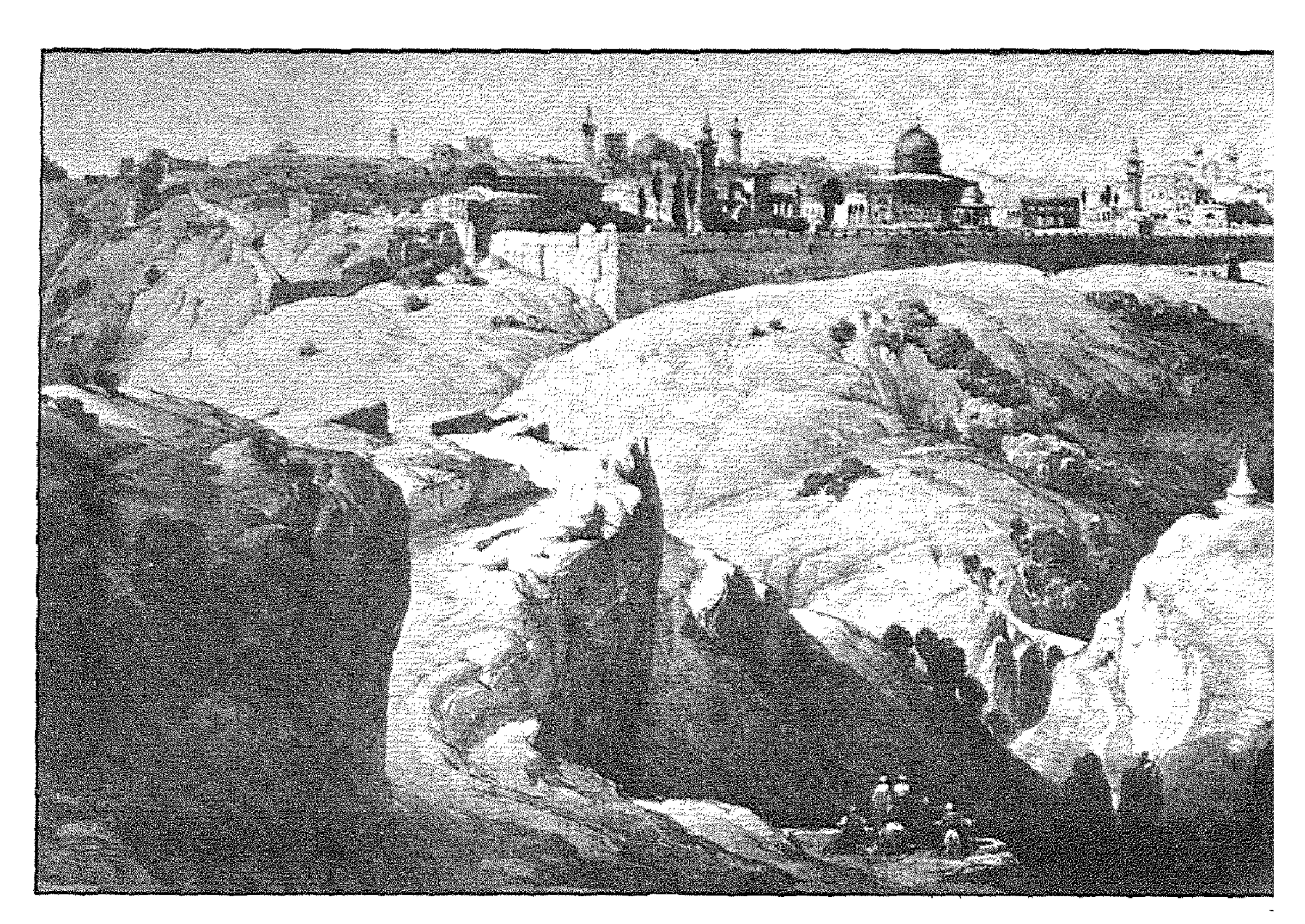
أرناط
الفارس اللصّ
نشأته حياته غزواته ودوره في تهيئة الظروف لمعركة حطّين

د. برهان العابد (الجزء الأول)

بدأت الحروب الصليبية منذ اليوم الأول لغزو طارق بن زياد الأرض الإسبانية سنة ٧١١ ميلادية ومنذ ذلك اليوم بدأ الصراع المرير بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية وتسلمت الكنيسة زمام قيادة الشعوب المسيحية وأخذت في تنظيم المرحلة الدفاعية التي دامت أكثر من ثلاثة قرون قبل أن تنتقل في نهاية القرن الحادي عشر إلى المرحلة الهجومية وتدفع بجموع المسيحيين إلى الشرق لتخليص القبر المقدس من سيطرة المسلمين.

إذن فالحركة الصليبية لم تخلق بين عشية وضحاها ولم تكن مسيرة مرتجلة دفعت أمواجها بلاغة البابا أوربان الثاني وكلماته المؤثرة على الحشود التي اجتمعت في كليرمون فيران في تشرين الثاني عام ١٠٩٥ ولكنها كغيرها من الحركات الأساسية في التاريخ كعصر النهضة أو الثورة الافرنسية ثمرة حالة فكرية عامة تعهدتها طبقة مثقفة واعية لحاجات الناس ورغباتهم. فالحروب الصليبية كانت استجابة لفورة العواطف الدينية ولضرورة التوسع التي أخذ يشعر بها عنصر فتي وقوي.

ففي أواخر القرن الحادي عشر ازداد عدد السكان في أوروبا وبرزت مشكلة بطالة بالنسبة للفرسان والنبلاء الفقراء الذين لا يملكون أرضاً يعيشون منها ولم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى الغزو والسطو في بلادهم أو القيام بمغامرات في بلاد بعيدة. لذلك فإن الظروف الاقتصادية والاجتماعية في الغرب تفسر جزءاً من النجاح الذي أصابته الحملات الصليبية. ويقارن لويس هالفين Halphen هذه الحروب التوسعية الاقطاعية بالحروب الاستعمارية[1]. ومما سهل الأمر أن أوروبا قبل نشأة الحكومات كانت



□ القدس ويبدو الحرم الشريف (صورة بريشة دافيد روبرتس).

تشكل وحدة متكاملة اسمها العالم المسيحي Chretiente لأن الأمراء كانوا ضعافاً والامبراطور ذاته لم يكن يتمتع بسلطة حقيقية لذلك فإن البابا كان رئيساً لهذا العالم يتولى إرشاد شعوبه في أمورها الروحية ويخطط لطراز حكمها وسياستها الدنيوية في زمن لم تكن فيه الحدود واضحة بين الدين والدنيا.

إن استقرار العرب المسلمين في إسبانيا وجنوب فرنسا وصقلية وجنوب إيطاليا وفي أكثر جزر البحر الأبيض المتوسط قضى قضاء مبرماً على أوروبا العصور القديمة وهزّ كيانها وأشاع الذعر في قلب روما التي تعرضت لهجمات المسلمين المخيفة منذ عام ٨٤٦ ميلادية[٢]. لذلك فقد فكر آباء الكنيسة في حرب مقدسة لمجابهة حركة الجهاد الإسلامي وكان أول المبشرين بها البابا جان الثامن الذي يعد أيضاً أول من أوجد فكرة الحروب الصليبية[٣] فبدأ في إشاعة المصالحة بين الأوروبيين ووضع لهم هدفاً مشتركاً تمهيداً لتوجيههم مجتمعين ضد المسلمين. ثم أخذت الكنيسة في تنظيم المجتمع المسيحي بشكل يسهل سيره صفاً واحداً نحو الهدف الذي عيّنته وهو تحطيم الإسلام وإبعاده عن أوروبا وأفريقيا أولاً ثم عن آسيا الصغرى واحتلال القبر المقدس وإقامة دولة تيوقراطية هناك.

إن أكبر مؤسسة كنسية عملت على بث روح الحروب الصليبية ونشرها بين جموع الأوروبيين هي رهبانية كلوني التي كانت تضم ما يقرب من ألفي دير منتشرة في جميع أنحاء أوروبا الغربية وخاصة في فرنسا. وليست كلوني رابطة نساك وصوفيين يقضون أيامهم ولياليهم في تلاوة الكتاب المقدس ولكنها تنظيم لرهبان يؤمنون بالعلم وبالعمل بينهم الفلاسفة والكتّاب والمهندسون والفنانون والموسيقيون والنحاتون ونساخو الكتب والصناع المهرة والخبراء في اللغات الشرقية وبينهم أيضاً محاربون أشداء.



□ جندي عربي أيام صلاح الدين.

فخلال قرنين من الزمن فرض دير كلوني وصاية على البابوات والملوك ونظم الروح القتالية لدى الإقطاعيين وأعلن أولوية الأمور الروحية وحقق حلم جان الثامن بتوحيد أوروبا وجعل من الحرب المقدسة شغله الشاغل. لقد لاحظ الناس كيف كان رهبان كلوني يدفعون أهلهم وأصدقاءهم ومحبيهم والمعجبين بهم نحو محاربة المسلمين في إسبانيا وأفريقيا وصقلية والأراضي المقدسة وكيف كانوا هم أنفسهم يحملون السلاح دفاعاً عن الكنيسة.

ولعل من أهم الوسائل التي استعملها دير كلوني لنشر فكرة الحرب الصليبية كان تجديد عادة الحج التي كان لها دور كبير في حياة الإنسان في القرون الوسطى وكانت إحدى وسائل نشر الشعر البطولي Chansons de geste الذي يحث الناس على الحرب المقدسة ويدفعهم إلى حمل السلاح.

ومما يدعو إلى الدهشة ما لوحظ من انطلاق حملات صليبية من الأمكنة التي كان الناس يحجون إليها. فقد خرجت من روما حملات صليبية إلى جنوب إيطاليا ومن سان ميشيل دومون غارغان St. Michel du mont Gargan انطلقت الحروب الصليبية النورماندية إلى صقلية ومن سان جاك دو كومبوستيل سارت الحملات الصليبية لتحرير إسبانيا وعلى يد حجاج القبر المقدس قامت الحملات الصليبية الشرقية[٤].

لقد كانت الكنيسة تعرف حق المعرفة بأن الحرب المقدسة لا يمكن أن تقوم إلا على سواعد الفرسان. وفي مجتمع يلعب فيه الفرسان دوراً هاماً كالمجتمع الفرنسي في القرون الوسطى لم يكن من الصعب إثارة عواطف هؤلاء الشباب وطموحاتهم لكي ينطلقوا لتحقيق أحلام الكنيسة وأحلامهم. فالكنيسة وجهت أطماع الفرسان نحو هدف جديد وحولت عاداتهم في السلب والنهب والغزو ونظمتها ونسقتها ضمن حرب تحرير خارجية تتسع للمغامرات والبطولات.

وبذلك أطفأت نيران الحروب الأهلية الداخلية ودلت على حس سياسي رفيع وخصوصاً البابا أوربان الثاني الذي أضاف قيماً روحية معينة وأعطى ميزات مادية لمن يحمل الصليب. فإليه يدين الغرب باستعادة وحدته وبالشعور بقوته وبالتمتع بالسلام على أرضه.

وسأحدثكم عن أنموذج فريد من نوعه لهؤلاء الفرسان يجسد أخلاق وسلوك هذا الطراز من المحاربين الذين أبعدتهم أوروبا عن أرضها لكي تنعم بالسلم بعد عدة قرون من الحروب الداخلية والأهلية فجاؤوا إلى أرضنا لينشروا الذعر والخوف والدمار. أنه رونو دو شاتيون الفارس اللص كما اصطلح على تسميته المؤرخون الفرنج فمن هو وأين عاش وماذا ارتكب من أعمال خلال أربعين عاماً وماذا كان دوره في تهيئة الظروف لمعركة حطين العظيمة وزوال المملكة الصليبية.

لا يعلم شيء مضبوط عن طفولة رونو دو شاتيون Renaud de Chatillon الذي يسميه المؤرخون العرب ارناط ولكن من المؤكد أنه نشأ في بلدة صغيرة اسمها شاتيون تقع في منطقة غاتينيه Gatinais بوادي نهر اللوان Loing القريب من أورليان وعاش كأمثاله من

طبقة فرسان ذلك العصر عيشة تتصف بالقسوة والحرية والمعارك المتواصلة. كما لا نعلم شيئاً عن سنه عندما أتى إلى الأراضي المقدسة ولا تاريخ سفره غير أن المؤرخ شلومبورجيه يحدد عام ١١٢٧ لمولده وعام ١١٤٧ لسفره إلى الشرق ومن الثابت مرافقته للحملة الصليبية الثانية التي استجابت لنداء القديس برنار في فيزيليه Vezelay وكان من أركانها ملك فرنسا لويس السابع وزوجته الملكة إيلينور Eleanore وكونراد امبراطور ألمانيا وأتباعهم من الفرسان الفرنسيين والألمان والتي انتهت بفشل ذريع في صيف عام ١١٤٧ على أرض البساتين الخضراء الجميلة المحيطة بدمشق(٥).

لقد ورد اسم ارناط للمرة الأولى عام ١١٥٣ عند ذكر معركة عسقلان في جملة فرسان إمارة إنطاكية الذين كانوا يحاربون تحت علم ملك بيت المقدس بغدوين الثالث الوصي على تلك الإمارة بعد مقتل أميرها ريمون دو بواتيه. فمن المحتمل أن يكون ارناط قد التحق بخدمة أمير إنطاكية قبل عودة لويس السابع إلى أوروبا في ربيع عام ١١٤٩(٦). وربما اشترك بالمعركة الهائلة التي دارت رحاها بين أفاميا والروج وانتهت بقتل أمير إنطاكية من قبل أسد الدين أحد قواد نور الدين محمود(٧).

ويذكر ابن الأثير في حوادث عام ٥٤٤هـ بأن معركة أخرى جرت في تلك الفترة أسر خلالها (البرنس الثاني زوج أم بيمند) ولكنه سرعان ما استعاد حريته على أثر عقد السلام بين نور الدين والصليبيين(٨).

بقيت إمارة إنطاكية تحت وصاية ملك بيت المقدس تحكم من قبل أميرتها الأرملة كونستانس التي رفضت كل من تقدم لطلب يدها من أمراء وفرسان. واستمر هذا الرفض ما يقرب من خمس سنوات انتهى فجأة بوقوعها في حبائل الفارس الفرنسي المغمور رونودو شاتيون ولكنها اشترطت عليه قبل الزواج حصوله على موافقة ابن عمها بغدوين الثالث ملك بيت المقدس.

وسرعان ما غادر ارناط أرض الإمارة وتوجه لمقابلة الملك أثناء حصاره لعسقلان. وقد تمكن من انتزاع موافقته بعد أن ارتمى يقبل قدميه ويرجوه أن لا يحرمه هذا الشرف العظيم. فوافق

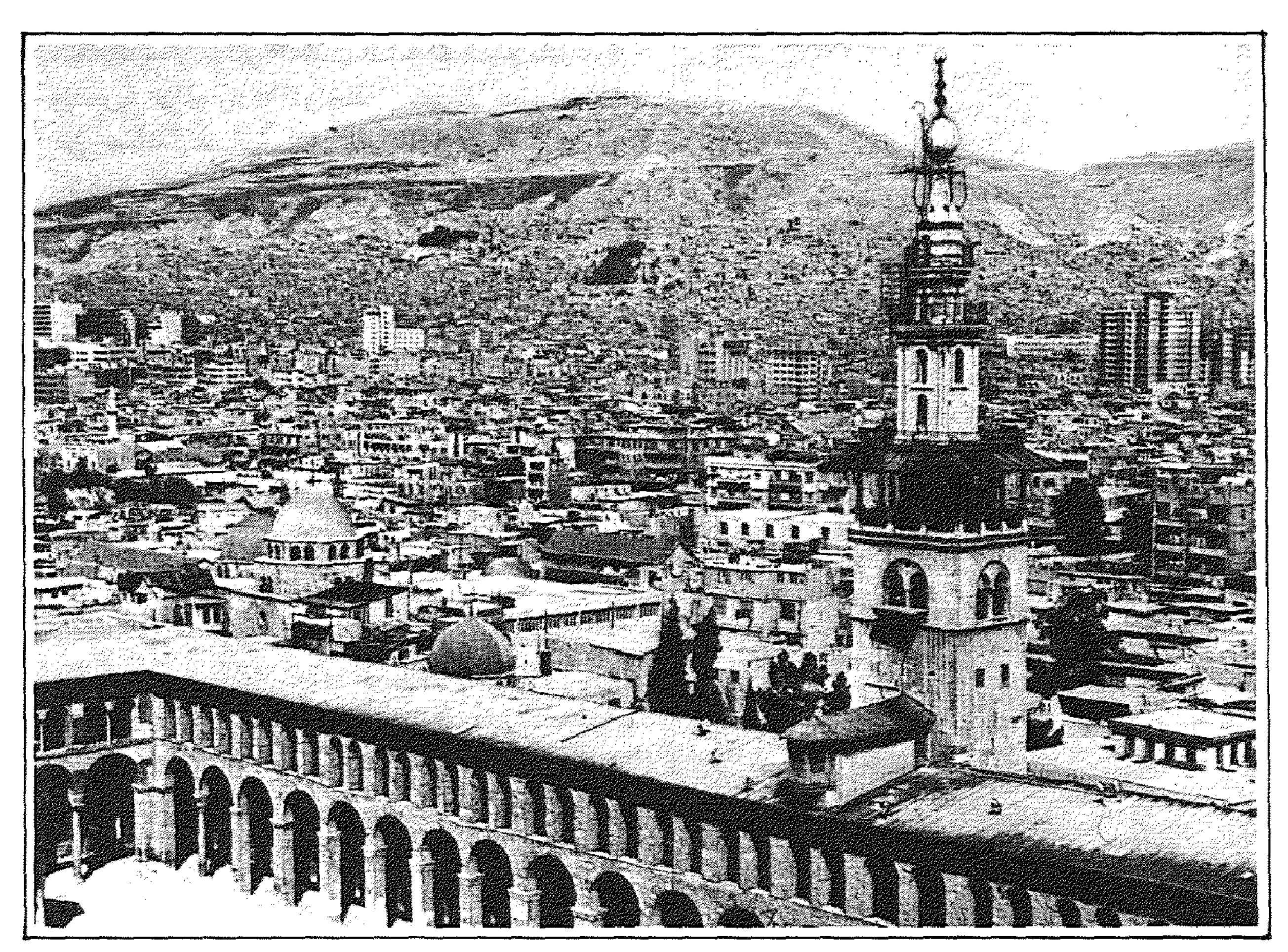


□ جندي صليبي.

الملك ليتخلّص من أعباء الوصاية التي تولاها على الإمارة منذ وفاة أميرها الشرعي(٩). ولا شك بأنه فرح لزواج ابنة عمه من فارس أثبت خلال المعارك التي خاضها كل شجاعة وإقدام.

عاد ارناط إلى إنطاكية حاملاً رسالة الملك بالموافقة وجرت مراسم الزواج وسط دهشة الجماهير التي لم تر فيه كفأ لابنة ريمون دو بواتيه إحدى أكبر الأميرات الصليبيات ووريثة أهم مدن الشرق اللاتيني بعد بيت المقدس(١٠).

إن أول حادث عرف عن ارناط بعد زواجه مباشرة والذي يدل على طبيعته الشرسة ويرسم صورة لسلوكه الذي استمر حتى قتله في حطين هو معاملته الوحشية لبطريرك إنطاكية إيميري دو ليموج Aymeri de Limoges هذا الراهب الذي أعلن صراحة عدم موافقته على زواج الأميرة كونستانس من هذا الفارس المجهول وأصر على موقفه العدائي منه بعد زواجه. فقد كان إيميري رجلاً أمياً يملك ثروة



□ مدينة دمشق في أواخر القرن التاسع عشر.

ضخمة جداً، وهو مسموع الكلمة بالرغم من صفاته البعيدة عن ما يجب أن يتحلى به رجال الدين من عفة وطهارة إذ يقول وليم الصوري بأن حياته الخاصة كان فيها كثير من الحرية وأنه كان لا يجد حرجاً في انتقاد ارناط ومعارضته علناً. وكانت هذه الانتقادات تصل إلى مسامع الأمير الأحمق مما حدا به إلى إضاعة صوابه والتصرف بشكل بعيد جداً عن العقل والروية إذ سجن البطرك وعامله معاملة خالية من الرحمة والاحترام فبعد تجريده من ثيابه وتكبيله بالحديد وضربه بالسياط ضرباً مبرحاً دهن رأسه وجروحه بالعسل وتركه في برج القصر تحت أشعة الشمس المحرقة عرضة للدغ الذباب والحشرات[١١].

ويعتقد المؤرخ البيزنطي كيناموس Kinnamos بأن ارناط عامل هذا الراهب بهذه القساوة سعياً وراء الاستيلاء على ثروته الكبيرة وذلك لتمويل حملته ضد جزيرة قبرص[١٢]. وعندما وصلت أخبار هذه الحادثة إلى مسامع الملك بودوان الثالث أرسل فوراً مستشار المملكة رؤول مع أسقف عكا للعمل على إطلاق سراح هذا السجين العالي القدر وإعادة أمواله واعتباره إليه.

ولكن البطرك أسرع في مغادر إنطاكية فور خروجه من السجن وذهب لاجئاً إلى بيت المقدس حيث استقبله الملك والملكة الأم ميليساند وزميله بطرك القدس وغيرهم من رجال المملكة بكثير من الحفاوة والترحيب.

وسأستعرض في هذه الدراسة أهم الغارات والغزوات التي قام بها ارناط مبتدئاً بمهاجمة جزيرة قبرص.

وفي عام ١١٣٦ ــ ١١٣٨ استولى الامبراطور البيزنطي جان كومنين على ولاية كيليكيا أرمنية وسجن حاكمها ليون وابنه طوروس ولكن طوروس تمكن بعد مدة قصيرة من الهرب من القسطنطينية والعودة إلى كيليكيا حيث أخذ باسترجاع أراضيها وحصونها من أيدي الحاميات البيزنطية بعد أن تحالف مع جيرانه

فرنج إنطاكية وتوج انتصاراته بالاستيلاء على مدينة ما ميسترا وأسر القائد البيزنطي فيها. لذلك فقد عمد الامبراطور إلى طلب مساعدة سلطان قونية السلجوقي مسعود لإخماد الثورة الأرمنية وإرجاع كيليكيا إلى الحكم البيزنطي ولكن المقاومة الأرمنية دحرت الجنود الأتراك في مضائق جبال طوروس وأجبرتهم على طلب الصلح والانسحاب. عند ذلك لم ير الامبراطور أمامه إلا تكليف صاحب إنطاكية البرنس ارناط بمهمة إخضاع الأرمن والقضاء على حكمهم في كيليكيا بالرغم من المرارة التي كان يشعر بها بسبب عدم استشارته في تنصيب ارناط أميراً على إنطاكية وهي الإمارة التي تعد قانوناً من أملاك التاج الامبراطوري، وقد تعهد الامبراطور لقاء هذه الخدمة بالاعتراف بارناط وبدفع تكاليف هذه الحملة وبعد معركة صغيرة جرت بين طوروس وارناط على أرض الإسكندرونة كان النصر فيها حليف أمير إنطاكية على حد قول المؤرخ ويليم الصوري فأعاد الأرمن حصن بغراس الحدودي إلى الداوية الذين وعدوا بالمساعدة وأقسموا بالدفاع عن الأرمن حتى الموت. لا شك بأن طوروس وارناط اقتنعا بأن الرابح الوحيد من الخصومة بينهما هو الامبراطور البيزنطي عدوهما المشترك وبتشجيع من الداوية فقد عقدا النية على التحالف ضد البيزنطيين وبدأ ارناط مضايقاته بمطالبة مانويل كومنين بدفع تكاليف الحملة ضد طوروس ولكن الامبراطور رفض الدفع لأن ارناط لم ينجز المهمة(١٣). عندئذ قرر أمير إنطاكية أن يستوفي حسابه بنفسه. فبدأ بشن حرب عصابات ضد القوات البيزنطية الموجودة في كيليكيا وأخرجها من الأماكن القليلة التي كانت تحتلها. ثم اتخذ قراراً بنقل المعركة إلى أرض أخرى. ولسوء الحظ وقع اختياره على جزيرة قبرص التي كانت تنعم بالسلام إذ أن البحر يحميها ويبعدها عن مراكز الصراع في اليابسة تجاه شواطئها بحيث لم تعرف منذ زمن طويل الحرب والسلب والكوارث التي كانت تنزل دون رحمة بالبلاد المجاورة لها كسورية وكيليكيا وآسية الصغرى(١٤). فأراضيها خصبة يستثمرها شعب مجد ذكي ينعم بالغنى والرفاهية ومدنها عامرة



□ صلاح الدين الايوبي.

وأنيقة وكنائسها تزخر بالمجوهرات والكنوز وأديرتها القديمة تطفح بالنفائس وبالذهب والفضة. وكانت الامبراطورية بحاجة إلى كل جندي من جنودها على البر الآسيوي لمواجهة الاعتداءات الأرمنية المستمرة وغارات الأتراك السلاجقة المتوقعة في كل زمان ومكان. مما حملها على أن لا تترك في الجزيرة إلا قوة ضئيلة كافية لدفع غزوات القراصنة المسلمين الذين كانوا من مصر أو ليبيا. كذلك فإن الاحتلال الصليبي للساحل السوري الذي مضى عليه نصف قرن كان نعمة على هذه الجزيرة التي كانت فيما مضى مسرحاً يومياً لغارات المراكب الآتية من المرافىء السورية. هذه المرافىء وإن لم تصبح تحت سيطرة حلفاء أوفياء فإنها على الأقل كانت بأيدي أناس تجمع بينهم وبين البيزنطيين رابطة الدين(١٥).

فالرخاء والسلام الطويل جعلا سكان الجزيرة ينامون ملء عيونهم بطمأنينة خادعة في كنف الحكم اللين والعطف الأبوي لنواب الامبراطور.

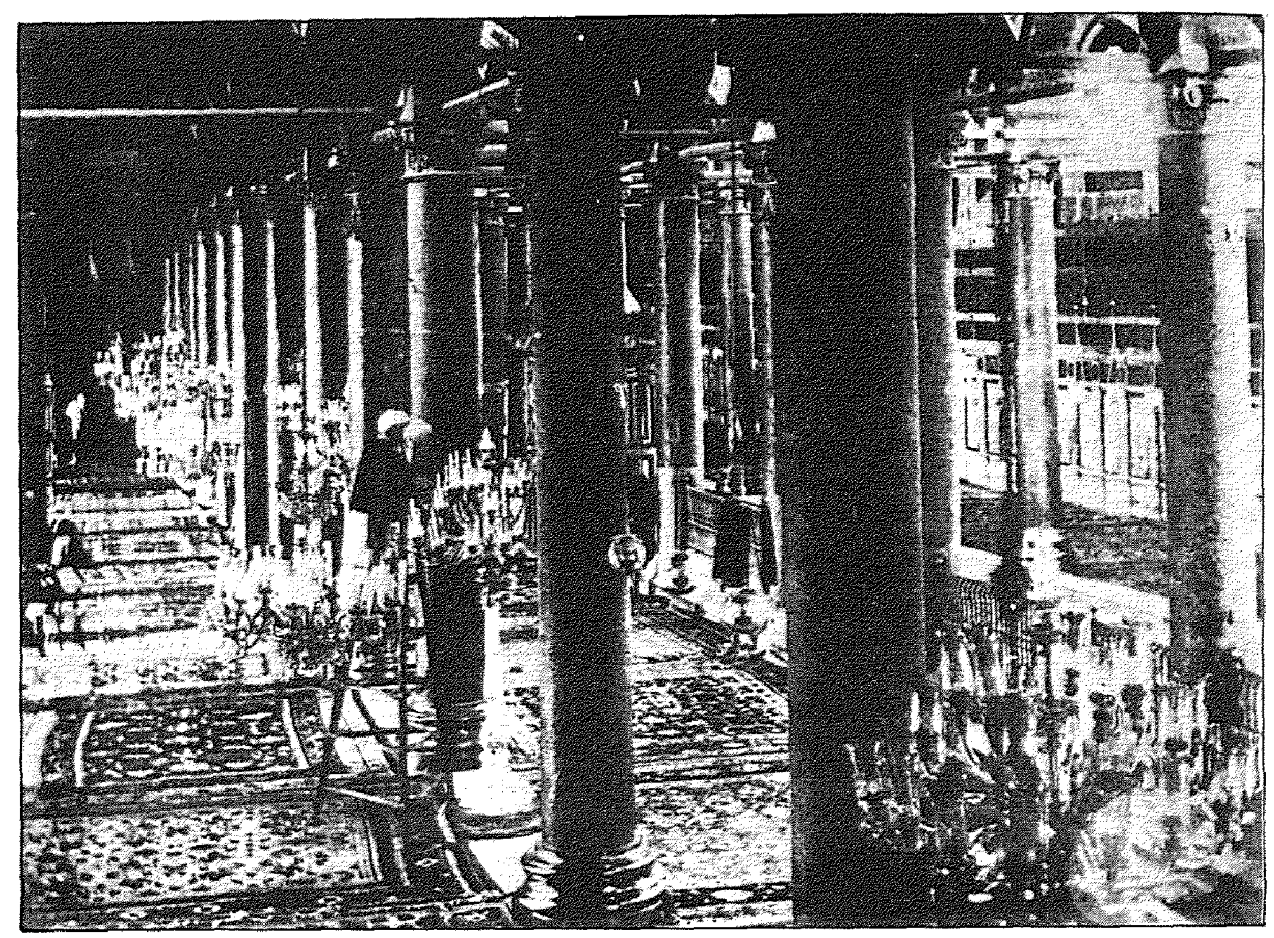
وفجأة أيقظتهم المغامرة المخيفة للأمير أرناط الذي نقم على الامبراطور مانويل وقرر أن يقتص منه بنهب ثروات أرض من أراضيه فمن الناحية القانونية كانت إمارة إنطاكية بحالة سلم مع الامبراطور الذي يعدها تابعة له حسب التقاليد والروابط الإقطاعية. لذلك كانت الغارة عملاً دنيئاً من أعمال القرصنة. ففي يوم من أيام عام ١١٥٥ جمع على عجل أسطولا لنقله ونقل جنوده وفرسانه وعصاباته التي تتألف من الأجناس والأديان الموجودة في البلاد السورية بينهم التركوبوليه والبدو والدروز إلى جانب حلفائه الأرمن جنود طوروس[١٦].

وقد حرص على سرية حملته بحيث فاجأ القبارصة بهجوم مباغت يفوق كل تصور وحساب مما جعل أحد المؤرخين الأرمن يقول بأن جنود إمارة إنطاكية عاملوا أهل جزيرة قبرص كما لو كانوا مسلمين[١٧]. فقد أغرقوا الجزيرة في بحر من الدم والنار. وانبرى لمقاومة الغزاة دوق قبرص جان كومنين ابن أخ الامبراطور وميشيل براناس قائد القوات العسكرية للجزيرة ولكن سرعان ما انهارت مقاومتهما ووقعا في أسر ارناط. وانقلبت الجزيرة مسرحاً لمجزرة هائلة استمرت أياماً حيث قتل الرهبان واغتصبت الراهبات وأحرقت المدن والقرى والأديرة والكنائس واضطر السكان المذعورون الهائمون على وجوههم إلى اللجوء إلى أعالي الجبال تاركين وراءهم كل ما يملكون من متاع الدنيا عرضة للنهب والدمار والحرق ولم تنته هذه المأساة إلا بعد ان أتت النيران على آثار العمران في الجزيرة. وقبل وصول الأسطول الامبراطوري ركب الفرنجة مراكبهم ورجعوا إلى بلدهم محملين بكميات هائلة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة والغنائم من جميع الأنواع وإضافة للقائدين الكبيرين عاد ارناط بعدد كبير من الرهائن بينهم كبار رجال الدين والأساقفة ورهبان الأديرة والحكام والقضاة وكبار الملاكين والتجار الأغنياء مع عائلاتهم ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن أدوا كامل الفدية الكبيرة التي فرضها عليهم ارناط[١٨] وقد ذكر المؤرخون الإيطاليون أنه أرسل بعض المشوهين إلى القسطنطينية على سبيل السخرية والهزء.

لم يمض زمن طويل على هذه الغارة الرهيبة حتى قام الفارس اللص بالاعتداء على أراض إسلامية مجاورة. ففي خريف عام ١١٦٠ علم ارناط بواسطة جواسيسه بوجود أعداد كبيرة من القطعان ملكاً لرعاة من المسيحيين من أصول سورية أو أرمنية أصبحوا تحت حكم المسلمين منذ استيلاء نور الدين على مدينة الرها بصورة نهائية عام ١١٤٧. كان هؤلاء الرعاة يعيشون بسلام تحت حكم أسيادهم التركمان لقاء اتاوات يدفعونها لهم.

ويقول رئيس أساقفة صور بأن رونو دو شاتيون طمع في الحصول على كسب وفير من إغارته على تلك النواحي بالرغم من وجود هدنة بين نور الدين وبين الأمراء الفرنج منذ إخفاق هجومهم على حلب. ولكن المعاهدات لم تكن لتثني ارناط عن عزمه. لذلك فقد جمع جموعه على عجل وسار بسرعة هائلة باتجاه الفرات ونشر فرسانه وجنوده في تلك الأراضي فنهبوا كل ما فيها من القطعان ثم بدأوا طريق العودة إلى إنطاكية فرحين مسرورين بما فازوا به من إسلاب بينها آلاف الرؤوس من الأغنام والبقر والجمال. ولسوء حظهم أجبرتهم كثرة القطعان والأجمال الثقيلة للمنهوبات على السير ببطء شديد.

وعندما وصل خبر هذا الاعتداء إلى مسامع نائب نور الدين في حلب الأمير مجد الدين بن الداية جهز بسرعة مجموعة قوية من الفرسان أمرها باقتفاء آثار الغزاة والقبض عليهم. وبمساعدة بعض الأدلاء من رجال ارناط الذين وقعوا في الأسر تم العثور على الجناة قرب مرعش حيث أخذ جنود نور الدين في حصارهم والتضييق عليهم حتى أدرك ارناط ورجاله بأنهم وقعوا في الفخ وأنه لا قبل لهم في مواجهة المسلمين نظراً لكثرتهم. وقد ارتأى بعض العقلاء من الغزاة أن تترك الغنائم ويخوض الفرسان المعركة في سبيل النجاة بأرواحهم. ولكن ارناط أصر على الدفاع عن الغنائم وأمر وضع قطعان الماشية والأسلاب بين صفين من الرجال ومقابلة الحلبيين. إن بطء السير مكن المسلمين من الانقضاض على جنود إنطاكية وإشاعة الفوضى بين صفوفهم وتفريقهم بين الحيوانات الهائجة.



□ جامع المدينة المنورة من الداخل (١٩٠٩).

لقد كانت المعركة طويلة وقاسية قاتل فيها الجميع بضراوة وخصوصاً ارناط الذي كان يلقي بنفسه في أحمى المواقع أملاً في حسم المعركة وجمع شمل رجاله الذين أخذوا في الفرار بعد أن تأكدوا من الهزيمة. وانتهت المعركة بسقوط ارناط عن جواده والقبض عليه مع ثلاثين من فرسانه ويذكر المؤرخ ميشيل السوري بأن جنود ابن الداية قتلوا أربعمئة جندي فرنجي في تلك الموقعة وهكذا فقد عاد الحلبيون ومعهم أسراهم المحمولون على ظهور الجمال وهم عراة مكبلين بالحديد ملطخين بالدم وآثار ضراوة المعركة بادية على وجوههم وأجسامهم وبعد عرضهم في شوارع حلب أودعوا السجون.

هذا ولا يذكر التاريخ شيئاً عن فترة اعتقال ارناط التي دامت ستة عشر عاماً اللهم إلا ما قيل على لسان أحد المؤرخين الفرنج بأنه تعلم شيئاً من اللغة العربية وإنه لم يبرح مدينة حلب مطلقاً. لقد شاهد ارناط وهو في سجنه ورود قوافل من الأسرى الفرنج أشهرهم بوهيموند الثالث الذي خلفه في إمارة إنطاكية وهوابن كونستانس من زوجها الأول كما أحضر جنود نور الدين الشاب الكونت ريموند أمير طرابلس وجوسلان الثالث أمير الرها وهوغ Hugues دو أوسينيان وكبير القواد البيزنطيين في كيليكيا وغيرهم أيضاً من الأمراء المسيحيين الذين تمكنوا من تدبير المبالغ الكبيرة التي طلبها نور الدين ثمناً لإطلاق سراحهم. فبوهيموند لم يمكث إلا سنة واحدة في الأسر بفضل معونة زوج اخته الامبراطور البيزنطي مانويل. وليس من العسير على الباحث أن يجد تفسيراً لسبب بقاء ارناط هذه الفترة الطويلة في سجنه. فسمعته السيئة وغدره وأخلاقه البعيدة كل البعد عن أخلاق الفرسان الشرفاء تفسر تشدد المسلمين في شروط بيعه ووضعهم العقبات في سبيل إخراجه من سجنه كما تفسر عدم اهتمام ملك بيت المقدس أو الامبراطور أو سكان إمارته في افتدائه والتعجيل في إخراجه من سجنه[١٩].

وأخيراً وبعد ستة عشر عاماً تمكن أصدقاء ارناط من جمع المبلغ الهائل الذي طلب فدية له والذي زاد على كل ما طلب ثمناً لحرية أي أمير من الأمراء الصليبيين الذين اعتقلهم نور الدين محمود. فبينما كانت فدية بوهيموند مئة ألف دينار وريمون ثمانين ألفاً وجوسلان خمسيناً لم يطلق سراح ارناط إلا بعد دفع مئة وعشرين ألف دينار وهي تعادل فدية مملكة كاملة كما قال أحد المؤرخين في ذلك العصر. ومع ذلك لم ينج كوموشتكين وزير السلطان الملك الصالح الذي فاوض في بيع ارناط من انتقاد ومهاجمة الرأي العام الذي رأى في إطلاق سراح هذا الأسير الخطير خيانة للمسلمين وجريمة لا تغتفر في حق الإسلام.

لما خرج ارناط من سجنه وعاد إلى إنطاكية وجد أن الأمور قد تبدلت تبدلاً كبيراً إذ لم يعثر على من يستقبله في تلك الإمارة التي كان في يوم من الأيام حاكمها لذلك فقد توجه نحو بيت المقدس حيث استقبله الملك بغدوين الرابع استقبالاً حاراً جداً لأن البلاد كانت بأمس الحاجة إلى أمثاله من المحاربين الأشداء إذ لم تعرف مملكة بيت المقدس منذ تأسيسها أوقاتاً أصعب مما كانت تمر به في تلك الفترة. إذ نزلت بها مصيبتان كبيرتان الأولى موت الملك عموري الباكر والثانية ظهور صلاح الدين على مسرح الأحداث كعدو قوي ومخيف للصليبيين في بلاد الشام، وضع المملكة الصليبية وإماراتها بين فكي كماشة، مصر من الجنوب ومملكة حلب التي سيستولي عليها قريباً من الشمال.

وبما أن الطريق الطبيعية التي تصل بين مصر والشام كانت تمر عبر إمارة الكرك لذلك فإن صلاح الدين استولى على أيله قبل أن يستولي على دمشق ثم وجه اهتمامه لمضايقة حصون الكرك والشوبك[٢٠] ونظراً لأن مستشاري بودوان الرابع يدركون أهمية هذه الإمارة التي تسيطر على الطريق التي تصل بين طرفي امبراطورية صلاح الدين والتي هي بنفس الوقت طريق الحج أسرعوا في انتقاء رجل قوي اختبر سابقاً في حماية إمارة إنطاكية وهو رونو دو شاتيون فزوجوه عام ١١٧٧ وريثة إمارة شرقي الأردن إيتين دو ميلي. لقد ازداد ارناط كرهاً وحقداً على الإسلام والمسلمين بعد السنوات الست عشرة التي قضاها أسيراً منبوذاً في سجون نور الدين. وإن تصميمه على الانتقام ظهر منذ اليوم الأول لتسلمه زمام هذه الإمارة فبالرغم من تصرفاته الهوجاء التي كانت تعرض المملكة لشتى أنواع الأخطار لم يكن الملك بودوان ولا مستشاروه الذين يشعرون بحاجتهم لخدمات سيفه يتجرؤون حتى على انتقاده مما حمله على اعتبار إمارته مستقلة استقلالاً تاماً عن مملكة بيت المقدس ولا ترتبط بالمعاهدات التي تبرمها ولذلك لم يجد أي حرج في نقض الهدنة ومهاجمة القوافل التي تمر بين حصون إمارته.

(يتبع)

المراجع

(١) Paul Rousset, Histoire des croisades, Payot, Paris 1978 page 14.

(٢) Anoir Hatem, Les poemes epiques des croisades, Genese Hhistoricite —— localisastion, Libraire orientaliste, 1932 page 34.

(٣) IBID, page 36.

(٤) IBID, page 48.

(٥) Schlumburger G. Renaud de chatillon prince d'antioche librairie plon 1898 page 5.

(٦) IBID page 6.

(٧) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ طبعة دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٦٧ الجزء التاسع صفحة ٢٥ حوادث سنة ٥٤٤.

(٨) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٩) RENN Grousset, histoire des croisades et du royaume france de jerusalem librairie plon 1935 page 327.

(١٠) iBID page 329.

(١١) IBID page 331.

(١٢) Schlumberger G. Renaud de chatillon page 53.

(١٣) Runciman S. A History of the crusades Penguin books 1965 vol. II page 346.

(١٤) Schlumurger G. Renaud deChatillon page 69.

(١٥) IBID page 70.

(١٦) IBID page 72.

(١٧) IBID page 74.

(١٨) IBID page 78.

(١٩) Runciman S. A History of the crusades vol. II page 358.

مَوطنهَا لبـــنان
أزمة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورهَا راسـخة فيـ الشرق الأوسَط
وأغصانهَا ممتـدّة فيـ أرجـاء الـدّنيـا





معاهدة النبي العربي (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود

اعداد: شذا عدره

استكمالاً لما ورد في باب «وثائق ومعاهدات» العدد (١١١ ــ ١١٢) في معاهدات النبـي صلى الله عليه وسلم، تنشر المعاهدة الثانية من تلك المعاهدات وهي معاهدة الرسول الكريم مـع اليهود.

معاهدة مع يهود المدينة

إمتاع الأسماع للمقريزي ج ١ ص ١١٠ –
ثم مرة أخرى في القسم الغير المطبوع منه (خطية كوپرولو ، استانبول) ص ١٤١٣

فجاءت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكون ذلك – [أي قتل كعب بن الأشرف] – فقال : إنه لو فرّ كما فرّ غيره ممن هو على مثل رأيه . ما اغتيل . ولكنه نال منّا الأذى وهجانا بالشعر . ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف . ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه ؛ فكتبوا بينهم وبينه كتاباً في دار رملة بنت الحارث .

ولم يرونص الكتاب .

الى يهود خيبر

به ص ٣٧٦ – ٣٧٧ – بط ع ١/٩ – عمخ ع ١٢٦ عن أبي نعيم – الزيلعي ع ٧ (عن أبي نعيم) – كنز العمال ج ٥ ع ٥٥١٣ – ٥٥١٤ – إمتاع الأسماع للمقريزي (خطية كوپرولو استانبول) ص ١٠٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم .

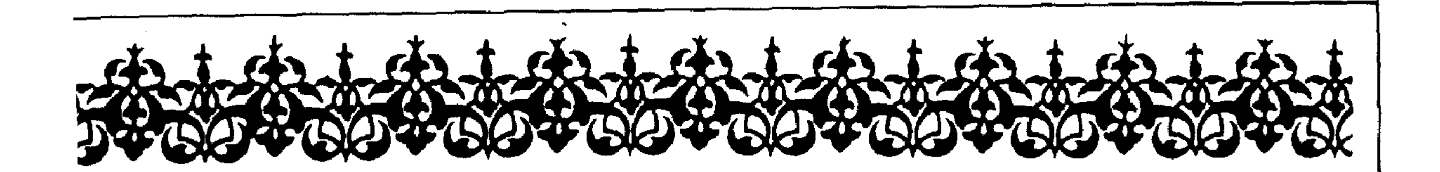
من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه المصدّق لما جاء به .

ألا إنَّ الله قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم : « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدّاءُ على الكفّار رُحَمَاءُ بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً مِن الله ورِضواناً . ٣

سِيماهم في وُجُوهِهِم مِن أثَرِ السُّجود. ذلك مَثَلُهُم في التّوراةِ. ومَثَلهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أخرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فاستَغلَظَ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكفّارَ . وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ منهم مَغفِرَةً وأجراً عظيماً » . ٦ ٩

وإني أُنشِدُكم بالله وأُنشدكم بما أُنزل عليكم وأُنشدكم بالذي أطْعم مَن كان قبلكم مِن أسباطكم المَنَّ والسّلوى . وأُنشدكم بالذي أيبسَ البحرَ لآبائِكم حتى أنجاكم مِن فِرْعونَ وعَمَلِهِ . إلاّ أخبرتموني : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كُرْهَ عليكم . « قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغيِّ » فأدعوكم إلى الله وإلى نبيّه . ١٢ ١٥

(٢) عمخ : المصدق بما جاء موسى .
(٣) بط ، عمخ : معشر يهود وأهل التوراة .
(٢-٤) بط : تجدون — أ محمدٌ .
(٦-٩) عمخ : لا يذكر من « سيماهم » إلى آخر الآية .
(١١) عمخ : قبلكم .. المن والسلوى .
(١١-١٢) بط : أيبس الأرض .
(١٢) بط : أخبرتمونا .
(١٣-١٥) عمخ : بمحمد ... قد تبيّن الرشد —
بط : كره لكم — عمخ : وادعوكم .



الى يهود خيبر أيضا

بد ص ٧٧٨ – موطأ مالك : باب القسامة – عمخ ع ١٢٥ –
الطرق الحكمية لابن القيم ص ١٨٨
قابل طب ص ١٥٨٩ – ٩٠ – بخاري ١٤/٩٣
– مسلم ٦/٢٨ ، رقم ١٦٦٩

كتب إلى يهود خيبر حين كلّمته الأنصارُ :

إنه قد قُتِل بين أبياتكم فَدُوه ، أوِ ائذَنوا بحربٍ من الله .

فكتبوا ، يحلفون بالله:ما قتلوه ، ولا يعلمون له قاتلاً ، فَوداهُ رسولُ الله مِن عنده .

مقاسم أموال خيبر

مغازي الواقدي ورقة ١٥٨ (وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم للرهاويين بطعمة من خمس خيبر بجاد مائة وسق ، وللداريين بجاد مائة وسق ، فهم عشرة من دران ... وأوصى للأشعريين بجاد مائة وسق) .
قابل بد ص ٧٧٥ – ٧٧٦ – بس ٢/١ ص ٧٦ للرهاويين

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى محمد رسول الله : لأبي بكر بن أبي قحافة مائة
وسق ، ولعقيل بن أبي طالب مائة وأربعين ، ولبني جعفر بن أبي ٣
طالب خمسين وسقاً ، ولربيعة بن الحارث مائة وسق ، ولأبي سفيان
ابن الحارث بن عبد المطلب مائة وسق ، وللصلت بن مخرمة بن المطلب
ثلاثين وسقاً ، ولأبي نبِقة خمسين وسقاً ، ولركانة بن عبد يزيد ٦
خمسين وسقاً ، وللقاسم بن مخرمة بن المطلب خمسين وسقاً ، ولمسطح
ابن أثاثة بن عباد وأخته هند ثلاثين وسقاً ، ولصفيّة بنت عبد المطلب

أربعين وسقاً . ولبُحَيْنة بنت الأرتّ بن المطلب ثلاثين وسقاً ، ولضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أربعين وسقاً ، وللحصين وخديجة وهند بني عبيدة بن الحارث مائة وسق ، ولأمّ الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب ثلاثين وسقاً ، ولأمّ هانىء بنت أبي طالب أربعين وسقاً . ولجمانة بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً ، ولأمّ طالب بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً ، ولقيس بن مخرمة بن المطلب خمسين وسقاً ، ولابنيْ أرقم خمسين وسقاً . ولعبد الرحمن بن أبي بكر أربعين وسقاً ، ولأبي بصرة أربعين وسقاً . ولابن أبي حُبيش ثلاثين وسقاً ، ولعبد الله بن وهب وابنيه خمسين وسقاً لابنيه أربعين وسقاً ، ولنميلة الكلبي من بني ليث خمسين وسقاً . ولأمّ حبيبة بنت جحش ثلاثين وسقاً ، وللكان بن عبدة ثلاثين وسقاً . ولمحيصة بن مسعود ثلاثين وسقاً.

٩ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨

(١) به : ...

(٢) به : ... لفاطمة مائتي وسق ولعلي بن أبي طالب مائة وسق ، ولأسامة ابن زيد مائتي وسق وخمسين وسقاً نوى ، ولعائشة مائتي وسق ولأبي بكر

(٣-٤) به : جعفر ... خمسين .

(٤-٦) به : وسق ... وللصلت بن مخرمة وابنيه مائة وسق للصلت منه أربعون وسقاً.

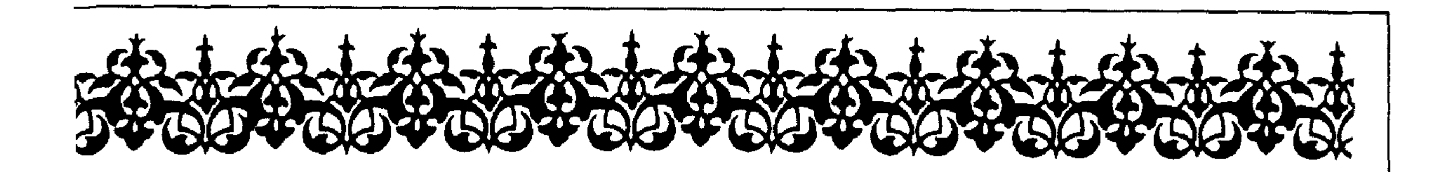
(٤-٦) به : وسق ... ولقيس بن مخرمة ثلاثين وسقاً ولابي القاسم بن مخرمة أربعين وسقاً ولعبد الرحمن —

(٧-١٢) به : + [ولبنات عبيدة بن الحارث وابنة الحصين بن الحارث مائة وسق ، ولبني عبيد بن عبد يزيد ستين وسقاً ، ولابن أوس بن مخرمة ثلاثين وسقاً] ولمسطح بن أثاثة وابن اليأس خمسين وسقاً ، ولأم رميثة أربعين وسقاً ، ولنعيم بن هند ثلاثين وسقاً ، ولبحينة بنت الحارث ثلاثين وسقاً ، ولعجير بن عبد يزيد ثلاثين وسقاً .

(١٢-١٣) به : حذف هنا ذكر أم هانيء وأم طالب .

(١٤-١٨) به : ولأم الأرقم خمسين وسقاً ، ولعبد الرحمن بن أبي بكر أربعين وسقاً ، ولحمنة بنت جحش ثلاثين وسقاً ، ولأم الزبير أربعين وسقاً ، ولضباعة بنت الزبير أربعين وسقاً ، ولابن أبي خنيس ثلاثين وسقاً ، ولأم طالب أربعين وسقاً ، ولأبي بصرة عشرين وسقاً ، ولنميلة الكلبي خمسين وسقاً ، ولعبد الله بن وهب وابنيه تسعين وسقاً ، لابنيه منها أربعين وسقاً ، ولأم حبيب .

(١٩) به : للملكو بن عبدة ثلاثين وسقاً ، ولنسائه (صلى الله عليه وسلم) سبع مائة وسق . (وحذف ذكر محيصة)



قسمة قمح خيبر

ـه ص ٧٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما أعطى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه من قمح خيبر : قسم لهن مائة وسق وثمانين وسقاً ، ولفاطمة ابنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمسة وثمانين وسقاً ، ولأسامة بن زيد أربعين وسقاً ، وللمِقداد بن الأسود خمسة عشر وسقاً ، ولأمّ رُميثة خمسة أوسق .

شهد عثمان بن عفان ، وعبّاس ، وكتب .

وقف عمر ما ملك من أموال خيبر

سنن الدارقطني ، كتاب الأحباس ٢/٥٠٦

جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت مالاً لم أصب مثله قط – وكان له مائة رأس – فاشتريت بها مائة سهم من خيبر من أهلها . وإني قد أردت أن أتقرّب بها إلى الله عز وجل . قال : فاحبس أصلها ، وسبّل ثمرها ... فكتب عمر :

هذا كتاب من عمر بن الخطاب في ثمغ والمائة وسق التي أطعمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرض خيبر . وإني حبستُ أصلها وجعلت ثمرتها صدقة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ٣ والمقيم عليها أن يأكل أو يؤكل صديقاً لا جناح .

ولا يباع ولا يوهب ولا يورث ما قامت السماوات والأرض .

جعل ذلك إلى ابنته حفصة . فإذا ماتت فإلى ذي الرأي من أهلها . ٦

أمان ليهود بني عاديا من تيماء

بس ج ٢/١ ص ٢٩ (ع ٤٧ ، ١) - ديب ع ٦
قابل الخراج لقدامة ورقة ١٢٠ ب - اللسان مادة « عدا »
وانظر كايتاني ٩ : ٥٠ - اشپرنكر ج ٣
ص ٤٢١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عاديا : إنّ لهم الذِمّة وعليهم الجِزية ، ولا عَداء ولا جَلاء ، الليل مدّ ، والنهار شدّ . ٣
وكتب خالد بن سعيد .

(٢) عاديا : كذا في ديب ، وفي بس : غاديا .
(٣) اللسان : بلا عداء .

طعمة ليهود بنى عريض

بس ج ٢/١ ص ٢٩ - ٣٠ (ع ٤٧ ب) - ديب ع ٧
وقابل بط ع ١/٢١ - ٢ - سهيلي ١٤٢/١
انظر كايتاني ٩ : ٥١ - اشپرنكر ج ٣ ص ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عُرَيض : طعمةٌ مِن رسول الله عشرة أوسق قَمح ، وعشرة أوسق شَعير في كل حصاد ، وخمسين وسقاً تمر ؛ يُوفَون في كل عام لِحينه ، لا يُظلَمون شيئاً . ٣
وكتب خالد بن سعيد .

وفي إمتاع الأسماع للمقريزي ج ١ ص ٤٥٥ : (وأهدى له عليه السلام بنو عريض اليهودي هريساً ، فأكلها . طعمهم أربعين وسقاً فلم تزل جارية عليهم) .

(٢ - ٣) ديب: محمد النبي - قمحاً.
(٣ - ٤) ديب شعيراً - وسق تمر في كل جداد يوفون ذلك - لا يظلمون فيها.

حل رموز الاختصارات

المستعملة في أوائل الوثائق

ألف ... طرف الوجه من ورقة المخطوطة
ب ... طرف الظهر من ورقة المخطوطة
بآ ... سيرة ابن اسحاق(ترجمتهاالفارسية)
بث ... أسد الغابة لابن الأثير
بح ... الإصابة لابن حجر
بحز ... ابن حزم
بحن ... مسند أحمد بن حنبل
بد ... سنن أبي داود
بس ... طبقات ابن سعد
بسن ... سيرة ابن سيد الناس
بط ... إعلام السائلين لابن طولون
بع ... أبو عبيد
بعب ... الاستيعاب لابن عبد البر
بعح ... ابن عبد الحكم
بعر ... ابن عبد ربه
بق ... زاد المعاد لابن القيم
بك ... ابن كثير
بلا ... فتوح البلدان للبلاذري
بم ... سيرة ابن هشام
بيو ... الخراج لأبي يوسف
ديب ... الديبلي
طب ... تاريخ الطبري
عمخ ... عبد المنعم خان

قس ... القسطلاني
قلقش ... القلقشندي
ج ... الجزء أو المجلد
س ... سطر
ص ... الصفحة
ع ... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلا ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية . أو رقم الفصل في كتاب (الأموال) ، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك
ف ... الفقرة والفصل
+ [] ... علامة الإضافة والمضاف
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين
قابل ... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات
انظر ... يشير إلى البحوث الحديثة

الرشيد وهدايا خراسان

● ركب يحيى بن خالد البرمكي يوماً مع هارون الرشيد، فرأى الرشيد في طريقه أحمالاً، فسأل عنها، فقيل له:
هذه هدايا خراسان بعث بها إليك عليّ بن عيسى بن ماهان.
وكان ابن ماهان وليها بعد الفضل بن يحيى البرمكي. فقال الرشيد ليحيى:
أين كانت هذه الأحمال في ولاية ابنك؟!
فقال يحيى:
كانت في بيوت أصحابها.
فأفحم الرشيد وسكت.

من كتاب «معجم الادباء»، لياقوت

من قصص العرب

الشاعر المُغَنِّي

● كان حُنَين شاعراً مُغَنِّياً فحلاً من فحول المغنِّين[١]. وكان نصرانياً يسكن الحِيرة[٢]. ولم يكن بالعراق غيره، فاستولى عليه في عصره. وقَدِم ابن مُحْرز المغني إلى الكوفة، فبلغ خبرُه حُنَيْناً، فخشيَ أن يعرفه الناسُ فَيَسْتَحْلُوه ويستوليَ على البلد فيسقُطَ هو. فتلطّف له حتى دعاه، فغنّاه ابنُ مُحرز لحناً، فسمع ما هاله وحيّره. فقال له حنين:

كم مَنَّتْك نفسُك من العراق؟

قال: ألفَ دينار.

فقال: فهذه خمسمائة دينار عاجلة، فخُذها وانصرف، واحلف لي انك لا تعود إلى العراق.

وكان ابنُ مُحْرز صغير الهمّة، لا يحبّ عشرة الملوك، ولا يُؤْثِر على الخَلْوة شيئاً. فأخذها وانصرف.

* * *

ثم قدم الحِيرَة ابن سُرَيج المغني ومعه ثلاثمائة دينار. فأتى بها منزل حُنين، وقال:

انا رجل من أهل الحجاز، بلغني طِيبُ الحيرة وجَودة خمرها، وحُسن غنائك، فخرجت بهذه الدنانير لانفقها معك وعندك، ونتعاشر حتى تنفد وأنصرف.

فسأله حنين عن اسمه ونَسَبه، فَغَيَّرهما، وانتمى إلى بني مخزوم. فأخذ حنين المال منه وقال:

مُوَفَّرٌ مالُك عليك، ولك عندنا كلُّ ما يحتاج إليه مثلُك ما نَشِطْتَ للمُقام عندنا، فإذا دَعَتْكَ نفسُك إلى بلدك جَهَّزناك إليه، ورددنا عليك مالك.

واسكنه داراً كان ينفرد بها، فمكث عنده شهرين لا يعلم حنين ولا احد من اهله انه يُغَنّي، حتى انصرف حنين من دار الوالي في يوم صائف مع قيام الظَّهيرة، فصار إلى باب الدار التي كان أنزل ابن سُرَيج فيها، فوجده مغلقاً. فارتاب بذلك، ودقَّ الباب فلم يُفتح له ولم يُجبه أحد. فصار إلى منازل الحُرَم فلم يجد فيها ابنته ولا جواريها، ورأى ما بين الدار التي فيها الحُرَم ودار ابن سُرَيج مفتوحاً. فانتضى سيفه ودخل الدار ليقتل ابنته، فلما دخلها رأى ابنته وجواريها وقوفاً على باب السرداب وهنَّ يُومِئْنَ إليه بالسكوت وتخفيف الوطء. فلم يلتفت إلى إشارتهن لِمَا تداخله، إلى أن سمع تَرَنُّمَ ابن سريج. فالقى السيف من يده، وصاح به — وقد عرفه من غير أن يكون رآه، ولكن بالنَّعْت والحِذْق:

أبا يحيى، جُعِلتُ فداءك، اتيتنا بثلاثمائة دينار لتنفقها عندنا في جيرتنا! فوحقِّ المسيح لا خرجتَ منها إلا ومعك ثلاثمائة دينار وثلاثمائة دينار وثلاثمائة دينار، سوى ما جئت به معك!

ثم دخل عليه فعانقه ورحّب به، ثم صار معه إلى الوالي فوصَلَه بعشرين ألف درهم.

* * *

وكان المغنون في ذلك العصر اربعة نفر: ثلاثة بالحجاز هم ابن سريج والغَريض ومَعْبَد، وحُنين وحده بالعراق. فاجتمع الثلاثة بالحجاز فتذاكروا أمر حنين، وقالوا: ما في الدنيا أهلُ صناعة شرّ منا؛ لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز، لا نزوره ولا نستنزيره[٣]؟! فكتبوا إليه، ووجّهوا إليه نفقة، وكتبوا يقولون:

نحن ثلاثة وأنت وحدَك، فأنت أولى بزيارتنا.

فَشَخَص إليهم[٤]. فلما كان على مرحلة من المدينة بَلَغهم خبرُه، فخرجوا يتلقّونه. ودخلوا المدينة، فلما صاروا في بعض الطريق قال لهم معبد: صِيروا إليَّ. فقال له ابن سريج: إن كان لك من الشرف مثلُ ما لمولاتي صِرنا إليك. فقال الغريض: إن كان لكما من الشرف والمروءة مثلُ ما لمولاتي سُكَينة بنت الحسين عَطَفْنا إليك. فقال: ما لي من ذلك شيء. وعَدَلوا إلى منزل سكينة. فلما دخلوا إليها أذِنَت للناس إذْناً عاماً، فَغَصَّت الدارُ بهم ليسمعوه، وصعِدوا فوق السطح وازدحموا عليه، فسقط الرِّواق على مَن تحته فمات حنينٌ تحت الهدم.

من كتاب «الاغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

(١) من فحول المغنين: من عظمائهم.
(٢) الحيرة: بلدة في العراق بين النجف والكوفة.
(٣) نستنزيره: نطلب منه زيارتنا.
(٤) شخص إليهم: رحل قاصداً إياهم.





بيت لحم

قسم التوثيق والأبحاث



من أعرق المدن الفلسطينية يرتبط تاريخها بتاريخ الشعب الفلسطيني وأصالته.

تقع المدينة في جبل يرتفع قرابة ٧٨٠م عن سطح البحر في الجزء الجنوبي من سلسلة جبال القدس، وعلى مسافة تزيد قليلاً على ١٠كم جنوبي مدينة القدس.

تشكل مدينة بيت لحم مع مدينتي بيت جالا وبيت ساحور تجمعاً عمرانياً ثلاثياً، فالواحدة لا تبعد عن الأخرى سوى ٢ ــ ٣كم، فبيت جالا تقع شمالي غربي بيت لحم، وبيت ساحور شرقيها.

مناخ المدينة معتدل البرودة شتاء، فمتوسط درجة الحرارة في شهر كانون الثاني يراوح بين ٨° و ١٠°. أما الصيف فلطيف جاف، ويبلغ معدل درجات الحرارة في شهر تموز ما بين ٢٣° و ٢٥°. تسقط الأمطار في فصل الشتاء، ويصل عدد الأيام الممطرة إلى ما بين ٤٠ و ٥٥ يوماً، ومتوسط كمية الأمطار السنوية نحو ٦٠٠مم.

قدر عدد سكان المدينة عام ١٩٧٨ بنحو ٣٤ ألفاً فيهم قرابة ٩ آلاف نسمة من اللاجئين الفلسطينيين. وكان للأحداث السياسية والآلام التي تعرض لها الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ دور في تطور عدد سكان المدينة، وبعد أن كان عدد سكان المدينة عام ١٩٤٧ قرابة ٨,٠٠٠ نسمة قفز عام ١٩٤٩ إلى ١٤ ألفاً، إذ لجأ الآلاف من أبناء فلسطين وسكنوا مخيمات ثلاثة بالقرب من المدينة، أكبرها مخيم الدهيشة ولا يزال هؤلاء اللاجئون يعيشون في هذه المخيمات في ظروف سكنية قاسية، إذ التمركز السكاني الشديد على مساحات ضيقة من الأرض، والخدمات الضرورية متواضعة جداً.

وهناك عامل سكاني آخر تتميز به مدينة بيت لحم هو الهجرة إلى الخارج ــ ولا سيما إلى الأمريكتين ــ التي تأخذ عادة طابع الهجرة الدائمة. وقد بدأت هذه الهجرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأخذت تتسع في بداية القرن العشرين. وتعود هذه الهجرة إلى أسباب عدة أهمها السعي إلى العيش في ظروف أفضل نتيجة التصور القديم عن ثروات الأمريكتين. وكان لعوامل الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي أيضاً دورها في هذا المجال. ويقدّر عدد من يعود إلى أصل تلحمي في الأمريكتين حالياً بما يزيد على ٥٥ ألفاً.

لمحة تاريخية

بيت لحم مدينة قديمة في التاريخ سُكنت حوالي سنة ٢٠٠٠ق. م. وتذكر ألواح تل العمارنة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد مدينة جنوبي القدس تسمى بيت إيلو لاهاما (Bit Ilu Lahama) أي بيت الإله لاحاما أو لاخاما. وهذا الإله هو إله القوت والطعام عند الكنعانيين. والأرجح أن اسم المدينة الحالي مشتق من اسم هذا الإله. وربما كان سبب جعل المدينة بيتاً للإله لاحاما أنها كانت تقع في منطقة خصبة ترعى فيها الأغنام ،والمواشي وتنتشر فيها حقول القمح والشعير والكروم والزيتون. ومن المعروف أيضاً أن كلمة بيت لحم تعني بالآرامية بيت الخبز. وفي

هذا أيضاً إشارة إلى خصب الأرض المحيطة بالمدينة. ولبيت لحم اسم قديم آخر هو افراته أو أفرات، وهي كلمة آرامية كذلك معناها الخصب والإثمار، وبذلك يلتقي اسما المدينة عند معنى الخصب.

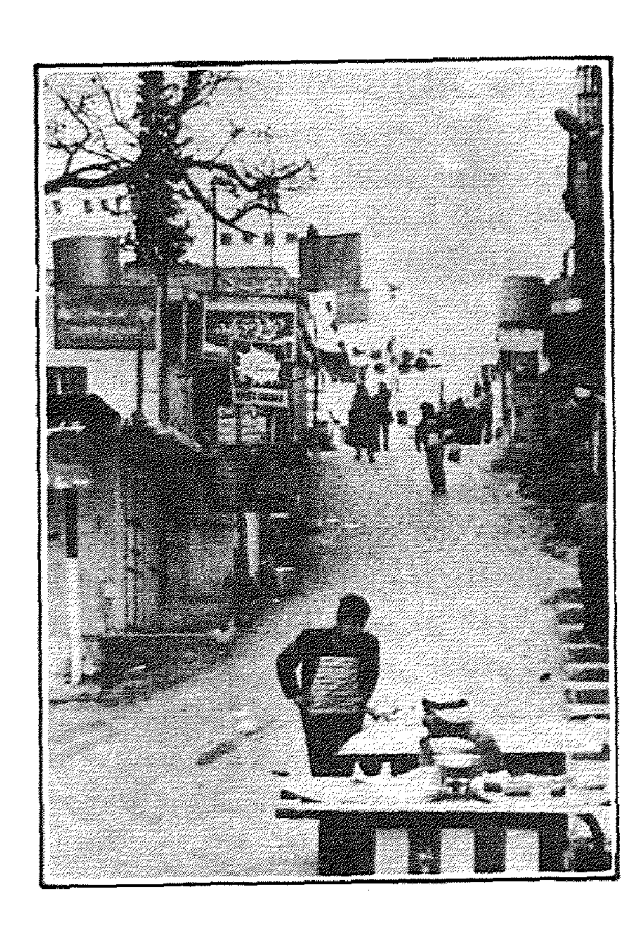
غزت القبائل اليهودية هذه المدينة الكنعانية واستقرت فيها بعد الكنعانيين. ويروى أن يعقوب عليه السلام جاء إلى المدينة من بيت إيل وهو في طريقه إلى الخليل، وقد اضطر للتوقف فيها لأن زوجته راحيل جاءها المخاض عندها فماتت ودفنها في مكان قريب من بيت لحم يعرف اليوم بقبة راحيل.

وفي أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد تغلّب الفلسطينيون على الملك اليهودي شاؤول وقتلوه وأقاموا في بيت لحم فترة من الزمن إلى أن تغلب عليهم الملك داود.

وفي بيت لحم ولد الملك داود. ويروي سفر راعوث أحد أسفار العهد القديم قصة راعوث المآبية التي انتقلت بعد وفاة زوجها مع حماتها ناعومي إلى بيت لحم حيث تزوجت الثري اليهودي محلون وولدت له عبيد (Obed)، وهو كما قيل جد داود. وبذلك جعلت راعوث غير اليهودية جدة الملك داود. والواقع ان هذه القصة هي إضافة متأخرة إلى أسفار العهد القديم ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد، وكان القصد منها تصحيح الصورة الانعزالية لليهود خاصة بعد عودتهم من السبي البابلي في القرن السادس، وهي من الأساطير.

استمدت بيت لحم أهميتها الكبرى وشهرتها في العالم من مولد السيد المسيح فيها. ويروي إنجيل لوقا ٢: ١ ــ ٢٠) أن مريم ويوسف النجار ذهبا إلى بيت لحم ليسجلا اسميهما في الاكتتاب (الإحصاء) العام بناء على أمر أغسطس قيصر. وقد ولدت مريم السيد المسيح وهي هناك. وذكر الداعية المسيحي يوستين مارتير (Justin Martyre) الذي كتب بعد سنة ١٥٥م أن مريم ولدت السيد المسيح ووضعته في مذود في مغارة قريبة جداً من القرية.

أخمد جيش الامبراطور الروماني هادريان ثورة اليهود بقيادة باركوخبا (Bar Kokhba)، وهدم المدينة وأقام فيها حامية رومانية. ثم أمر الإمبراطور ببناء معبد للإله أدونيس فوق المغارة التي ذكر أن السيد المسيح ولد فيها.



وفي حوالي سنة ٣٣٠م بنى الإمبراطور قسطنطين الروماني كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة القديسة مريم. والمشهور أن الذي بنى هذه الكنيسة هو القديسة هيلانة أم قسطنطين، وذلك بين سنتي ٣٢٦ و ٣٣٣م. وفي سنة ٣٨٦ حلّ في بيت لحم القديس جيروم وترجم فيها العهد القديم إلى اللغة اللاتينية. وبقيت الكنيسة حتى عام ٥٢٩م حين هدمها السامريون عندما ثاروا على الدولة الرومانية، فأعاد بناءها الامبراطور جوستنيان بشكلها الحالي تقريباً وأصبحت تدعى كنيسة المهد.

ويروى أن الفرس عندما احتلوا فلسطين سنة ٦١٤م لم يمسّوا الكنيسة بأذى لأنهم رأوا على واجهتها الصورة المصنوعة من الفسيفساء التي تمثل سجود المجوس بملابسهم الفارسية أمام السيد المسيح.

وعندما فتح المسلمون القدس سنة

١٥هـ/٦٣٦م أظهروا الاحترام لمهد عيسى عليه السلام. ويذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب زار بيت لحم سنة الفتح وأعطى أماناً لأهلها وحضرته الصلاة وهو في كنيسة المهد فصلى داخل الكنيسة عند الحنيّة القبلية، وكتب عمر للبطرك سجلاً ألّا يصلي في هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد رجل. ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون إلى تلك الحنية ويصلون فيها. ومن دلائل تعظيم المسلمين لكنيسة المهد أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يبعث بزيت يسرج في بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام. وقد ظل معظم سكان بيت لحم من النصارى على دينهم بعد الفتح، ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله الفاطمي لما أمر بهدم الكنائس المسيحية سنة ١٠٠٩م لم يهدم كنيسة المهد. وقد وصف القس اركولفوس (Arculfus) بيت لحم في القرن السابع الميلادي (حوالي ٦٧٠) فقال إنه كان للمدينة آنذاك سور منخفض لا أبراج فيه.

وفي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م دخل الصليبيون مدينة بيت لحم بقيادة تنكريد (Tancréd). وفي السنة التالية (١١١٠م) توج بلدوين الأول (Baldwin I) فيها ملكا على القدس. وأصبحت بيت لحم أبرشية سنة ١١١٠م. وأعاد الصليبيون تعمير المدينة، وأضافوا إلى كنيسة المهد ديراً على النمط القوطي، وبنوا حصناً فيها، وأقاموا عمائر مختلفة حول الكنيسة. وفي أثناء حكم الصليبيين لم يكن اليهود يجرؤون على العيش في بيت لحم.

ولما انتصر صلاح الدين على الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م عادت بيت لحم إلى حكم أهل البلاد، لكنها ما لبثت أن سلمت إلى الصليبيين ثانية سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م بموجب اتفاقية عقدت بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فريدريك. وفي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل من استعادة بيت لحم بمساعدة الخوارزميين.

وفي عصر المماليك زار بيت لحم أو وصفها عدد من الكتاب والرحالة المسلمين منهم الهروي المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وياقوت المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م الذي ذكر أنها كانت عامرة حافلة فيها سوق ومزارات، والقزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م والظاهري المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م. ومعظم هؤلاء ذكروا أن بها جذع النخلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (سورة مريم آية ٢٥).

وحدثت في آخر العهد المملوكي سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م فتنة في البلاد أسفرت عن هدم حصن المدينة المنيع وتخريب أسوارها. وفي سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م استولى العثمانيون على بيت لحم وبقي المسيحيون فيها يتمتعون بحريتهم الدينية. وقدر الرحالة الفرنسي فولني (Volney) عدد سكانها في القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) بستمائة شخص، وقال: «إن المسيحيين في بيت لحم يعيشون في سلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين. وجميعهم من الحزب اليمني، والفلسطينيون حزبان يمنيون وقيسيون».

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر (الحادي عشر والثاني عشر للهجرة) حدثت نزاعات بين طائفتي الروم الأرثوذكس واللاتين حول ملكية الأماكن المقدسة في بيت لحم ومنها ما حدث سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٧م. وعندها أصدرت الحكومة العثمانية أمراً جددت فيه ما خص كلاً من الطائفتين، وفاز الأرثوذكس بمعظم الأماكن.

استمرت الخصومات في القرن التاسع عشر (الثالث عشر للهجرة). وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م اختفت النجمة الفضية المثبتة في مغارة المهد وقد كتب عليها باللاتينية «هنا ولد المسيح من العذراء مريم». وكانت سرقة النجمة عاملاً هاماً في الأزمة الدولية التي أدت إلى حرب القرم (١٨٥٤م — ١٨٥٦م) بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى. وانتهت الحرب بانتصار العثمانيين وحلفائهم. وسمح للاتين بعد ذلك بأن يضعوا يدهم على قسم من كنيسة المهد. وقسمت الكنيسة بين الروم الأرثوذكس واللاتين والأرمن. وما زال هذا الوضع قائماً حتى الآن.

وفي عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م دخلت بيت لحم وفلسطين كلها تحت الحكم البريطاني الذي

استمر حتى سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م. وفي هذه الفترة كانت بيت لحم من مراكز الثورة الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني. وكان مركز الشرطة الإنكليزي فيها هدفاً لهجمات الثوار الفلسطينيين في أعوام الثورات المتكررة ضد الاستعمار البريطاني وحليفته الصهيونية.

وبعد نكبة عام ١٩٤٨ دخل المصريون قطاع الخليل وبيت لحم، ثم انسحبوا منه في أيار عام ١٩٤٩. واستقر الحكم بعد ذلك في بيت لحم وفي الضفة الغربية كلها للأردن حتى حرب ١٩٦٧ عندما وقعت بيت لحم والضفة الغربية كلها تحت الاحتلال الإسرائيلي.

التطور السكاني والعمراني

كانت بيت لحم في العصور القديمة قرية متواضعة تكتنفها الأودية العميقة من جهاتها الثلاث. وقد اشتهرت كمركز تجاري في العهد الروماني لقيامها على الطريق التجارية التي تربط بين البحر الأحمر وبلاد الشام. ووصلت شهرتها إلى الذروة نتيجة لميلاد المسيح فيها. وفي القرن الخامس عشر الميلادي كانت بيت لحم محاطة بالأسوار، واشتملت في القرن التاسع عشر على المدارس والكنائس والأديرة والمساجد والمشاغل الصناعية، وقدر عدد سكانها في أواخر ذلك القرن بنحو ١٠،٠٠٠ نسمة. وفي أوائل القرن العشرين قدر عددهم بنحو ١٢،٠٠٠ نسمة.

أخذ عدد سكان بيت لحم يتناقص خلال الحرب العالمية الأولى بسبب الحرب والأمراض والمجاعات والهجرة. ففي عام ١٩٢٢ أصبح عددهم ٦،٦٥٨ نسمة. ولكنه أخذ يتزايد ببطء شديد فيما بعد فوصل عام ١٩٣١ إلى قرابة ٦،٨١٤ نسمة، عدا سكان الضواحي الذين قدر عددهم آنذاك بنحو ٥٠٦ نسمات. وفي عام ١٩٤٥ قدر عدد سكان بيت لحم بنحو ٨،٨٢٠ نسمة. وبالرغم من بطء النمو السكاني أثناء فترة الانتداب البريطاني شهدت المدينة نمواً عمرانياً آنئذ بسبب تدفق رؤوس الأموال من المغتربين من أبناء بيت لحم. وقد استثمر معظمها في إنشاء المباني السكنية العصرية، والمصانع المختلفة، والمحلات التجارية، ومما يدل على ذلك زيادة عدد بيوت المدينة من ١،٥٠٦ بيوت عام ١٩٣١ إلى ٢،٠٠٠ بيت عام ١٩٤٥. كذلك توسعت رقعة المدينة بفعل امتدادها العمراني، وأصبحت مساحتها ١،٦٩٤ دونماً في عام ١٩٤٥.

وفي الفترة التالية لعام ١٩٤٨ تطورت أحوال بيت لحم، وزاد عدد سكانها نتيجة تدفق اللاجئين الفلسطينيين إليها. وانعكس الأمر على زيادة بيوتها. ففي عام ١٩٦١ بلغ مجموع سكانها ٢٢،٤٥٣ نسمة يقيمون في ٣٠٥٥بيتاً. وأخذت المدينة بعدئذٍ تنمو حتى قدر عدد السكان في عام ١٩٦٦ بنحو ٢٤،٠٠٠ نسمة يقيمون في نحو ٣،٥٠٠ بيتاً. وقد أدّى الاحتلال (الإسرائيلي) للمدينة عام ١٩٦٧ إلى انكماش عدد سكانها في نهاية العام إلى ١٦،٣١٣ نسمة. وبعد أن استقرت الأوضاع نسبياً في المدينة أخذ عدد السكان يرتفع تدريجياً حتى عاد إلى ما كان عليه قبل الاحتلال، ووصل عام ١٩٨٠ إلى ٢٥،٠٠٠ نسمة. وأخذت المدينة تتوسع عمرانياً، لا سيما بمحاذاة طريق القدس ــ الخليل.

الحياة الاقتصادية

١ ــ **السياحة**: ساهم كون بيت لحم مسقطاً لرأس السيد المسيح في أن يكون لعامل السياحة وما يرتبط بها الدور الأساسي في اقتصاد المدينة التي تحولت إلى محج للسياح على مدار السنة. وعلى الرغم من أن المدينة تفتقر إلى الفنادق السياحية الكبرى فإن الجوانب الأخرى السياحية فيها متطورة، وأهمها تطور صناعة الأراضي المقدسة من خشب الزيتون والصدف والنحاس والتطريز. وقد دخلت هذه الصناعة في القرن الثاني عشر الميلادي. فأتقنها أهل المدينة وأصبحت مصدر الرزق الرئيس لمعظم بيوتها، ثم أخذت تتطور بدخول الآلة إليها.

وصناعة التحف الخشبية من أقدم الصناعات في المدينة. ففي المدينة قرابة ٨٠ منجرة تقوم بتصنيع التحف الخشبية. لكن هذه الصناعة واجهت بعد الاحتلال الصهيوني الكثير من الصعوبات، ولا سيما صعوبة تأمين خشب الزيتون الذي كان يستورد قبل الاحتلال من سورية لأن الخشب المحلي لا يكفي. وقد أدى

ذلك إلى التوجه إلى صناعة الصدف. ومعظم المتاجر صغيرة الحجم، عدا أربع منها كبيرة نسبياً، وتنتج وحدها قرابة ١٠ ٪ من الإنتاج العام.

أما صناعة الصدف فيبلغ عدد المعامل فيها ٥٠ معملاً معظمها حرفي صغير الحجم، عدا معملين كبيرين يقدمان قرابة ٣٠ ٪ من إنتاج الصدف العام. ويستخدم في هذه الصناعة الصدف الخام المستورد من الخارج. ويعمل في صناعة الصدف قرابة ٨٠٠ شخص معظمهم من أصحاب المعامل الصغيرة.

ويشكل هذان الفرعان الدخل الرئيس للمدينة، فالصدف وحده يقدم أكثر من نصف دخل المدينة الصناعي. ويذهب ٧٠ ٪ من إنتاج الخشب والصدف للتصدير إلى الخارج في حين يباع الباقي للسياح في السوق المحلية. وفي بيت لحم أكثر من ٤٥ محلاً تجارياً لبيع تحف الأراضي المقدسة.

والتطريز يدوي تقوم به نساء المنطقة على قطع صغيرة، أو على الثياب النسائية. وتشتهر منطقة بيت لحم بجمال أشكال التطريز. وقد تطورت في المدة الأخيرة في مدينة بيت لحم صناعة التحف المعدنية النحاسية، وأقيم فيها معملان آليان لإنتاج هذه التحف.

٢ ــ **الصناعة**: مدينة بيت لحم ثاني مدينة في الضفة الغربية بحجم إنتاجها الصناعي بعد نابلس. وقد تطورت فيها فروع صناعية متعددة أهمها وأقدمها صناعة النسيج. وهي تساهم بسد حاجة السكان. ويبلغ عدد معامل النسيج بمختلف أنواعه ٢٧ معملاً ذات أحجام مختلفة. وهي تقوم بإنتاج أنواع كثيرة من الأقمشة، خصوصاً أقمشة الفرش والأقمشة الخشنة والمناشف. يضاف إلى ذلك عشرة معامل «للتريكو» تنتج مختلف الألبسة الصوفية وهناك ثلاثة مصانع للجوارب، وتسعة معامل لإنتاج الألبسة الداخلية. ومعظم هذه المعامل صغيرة الحجم يعمل في كل منها أقل من خمسة عمال، لكن هذا لم يمنع وجود معامل متوسطة الحجم يعمل في كل منها ما بين ٤٠ و ٥٠ عاملاً. وتستورد هذه المعامل المواد اللازمة لصناعتها من الخارج.

وتتطور في المدينة صناعة المعكرونة، ويقوم المصنعان اللذان يعمل في كل منهما قرابة ٢٠ ــ ٢٥ عاملاً بتزويد الضفة الغربية بهذه المنتجات.

كذلك تنمو في بيت لحم صناعات أخرى أهمها صناعة الأثاث المعدني التي تتم في معملين آليين. وظهر في هذا المجال مصنعان لأثاث الألمنيوم. ويتم في المدينة إنتاج السخانات الشمسية في مصنع كبير يزود الضفة بأكملها بالسخانات الشمسية. وفي المدينة مصنع مسامير وبراغي، ومعمل لإنتاج هوائيات التلفزيونات، ومعمل آخر للأسلاك المعدنية، ومصنع للمحولات الكهربائية.

وفي مجال الصناعة الكيميائية هناك معملان لإنتاج الدهانات ومعمل لإنتاج خُضُر اللدائن (البلاستيك) ومعامل أخرى لأدوات التجميل، وللصابون ولمواد التنظيف ولمبيدات الحشرات.

وفي المدينة قرابة ١٩ مقلع حجارة ومكسرة، ونحو ١١ معملاً للبلاط تزود المنطقة بما تحتاج إليه من هذه المواد.

٣ ــ **الزراعة**: ليس للزراعة في حياة بيت لحم ما للصناعة من أثر، ذلك لأسباب كثيرة أهمها طبيعة الأراضي الجبلية للمدينة التي تحدّ من تنوع الإنتاج الزراعي، وشيوع الملكية الزراعية الصغيرة التي تحدّ من الاستثمار الشامل والآلي للزراعة، يضاف إلى ذلك العراقيل التي وضعها الاحتلال الصهيوني في وجه الزراعة والتي أدّت إلى تحوّل الأيدي العاملة إلى العمل الصناعي.

والزراعة في أراضي المدينة بعلية. وأهم المنتجات الزراعية هي الشجرية من زيتون وعنب ولوزيات، يضاف إلى ذلك بعض الخضر الصيفية. ويزرع في المنطقة من الحبوب والقمح والشعير وبعض البقول.

أما الثروة الحرجية في المنطقة فبسيطة. وقد عانت من الاستعمال الجائر في سنوات الحرب العالمية الأولى. ولا توجد الأحراج الآن إلاّ في بقع متفرقة حول الأديرة وبعض مناطق التحريج.

البناء والمباني الأثرية

في المدينة طرازان معماريان مختلفان، الأول قديم في البلدة القديمة حيث القباب والجدران السميكة المصنوعة من الحجر الكلسي، والأبواب

والشبابيك على شكل الأقواس. وتلتصق هذه البنايات بعضها ببعض مقسمة البلدة القديمة إلى حارات متراصة ذات شوارع ضيقة. وكان هذا هو الشكل الأمثل لتأمين الدفاع عن المدينة والأحياء قديماً. أما الطراز الثاني فهو الطراز الحديث في مناطق السكن الجديدة، ويتكون البناء فيه من الحجر المنحوت من الخارج والإسمنت من الداخل. والشبابيك والأبواب مستطيلة الشكل، والسقف مسطح. وشكل البناء السائد هو البيوت المستقلة ذات الطبقة الواحدة. وقد بدأ حديثاً بناء عمارات من طبقات متعددة.

وبيت لحم وضواحيها غنية بالآثار وأهم هذه الآثار المعمارية كنيسة المهد أقدم كنيسة في العالم.

المستوى الثقافي

نالت بيت لحم قسطاً وافراً من التعليم منذ زمن بعيد، إذ أقيمت أولى المدارس فيها منذ أكثر من ١٠٠ عام. ويعود ذلك إلى الطابع الديني الغالب على المدينة الذي أدّى إلى وجود الإرساليات والأديرة التي أقامت المدارس الخاصة منذ زمن بعيد. وقد وصل عدد طلبة المدارس فيها عام ١٩٧٨ إلى ٨,٣٠٠ طالب، أو ما يزيد على ٣٤ ٪ من سكان المدينة. ويدرس هؤلاء في ٢١ مدرسة. أما القفزة الرئيسة في التطور التعليمي في المدينة فكان افتتاح جامعة بيت لحم عام ١٩٧٣، وقد بلغ عدد طلابها عام ١٩٧٨ نحو ٧٥٠ طالباً يدرسون في كلية العلوم (أقسام الكيمياء والرياضيات والأحياء)، وفي كلية الآداب (أقسام اللغة العربية واللغة الإنكليزية وعلم الاجتماع وعلم النفس والخدمة الاجتماعية)، وكلية التمريض، وكلية المعلمين، ومعهد الفنادق. وعدد المدرسين في الجامعة ٦٤ مدرساً، ويطبق فيها نظام الساعات المعتمدة. وتساهم جامعة بيت لحم مع غيرها من المؤسسات التعليمية العالية في الضفة والقطاع بإعداد المتعلمين اللازمين للبلاد، وهي بذلك تحدّ من عملية إفراغ الأراضي الفلسطينية منهم.

الخدمات الصحية

وهي متطورة في المدينة بشكل عام. وبيت لحم من أقدم المدن الفلسطينية التي وجدت فيها المشافي. ففي المدينة ٣ مستشفيات يصل عدد الأسرة فيها إلى ٢٣١ سريراً، ويعمل فيها ٢٨ طبيباً يضاف إليهم ١٩ طبيباً لهم عياداتهم الخاصة و ٨ صيدليات.

المراجع

— مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، النجف ١٩٦٨.
— مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٧٤.
— مرمرجي الدومينيكاني: بلدية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨.
— وليد مصطفى: مدينة بيت لحم — دراسة إقليمية، دمشق ١٩٦٥.
— المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٨٧٧.
— ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.
— Encyclopedia Britannica.
— Hamilton R. W.: The Church of the Nativity-Bethlehem, Jerusalem 1947.
— Perowne. S.: Jerusalem and Bethlehem, London 1965.

— **الموسوعة الفلسطينية، المجلد (١)، الطبعة ١٩٨٤.**

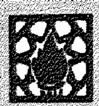


● «أيها الناس إني والله لا أبعث عمالي إليكم، ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنّة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي. فوالذي نفسي بيده لأمكننه من القصاص».

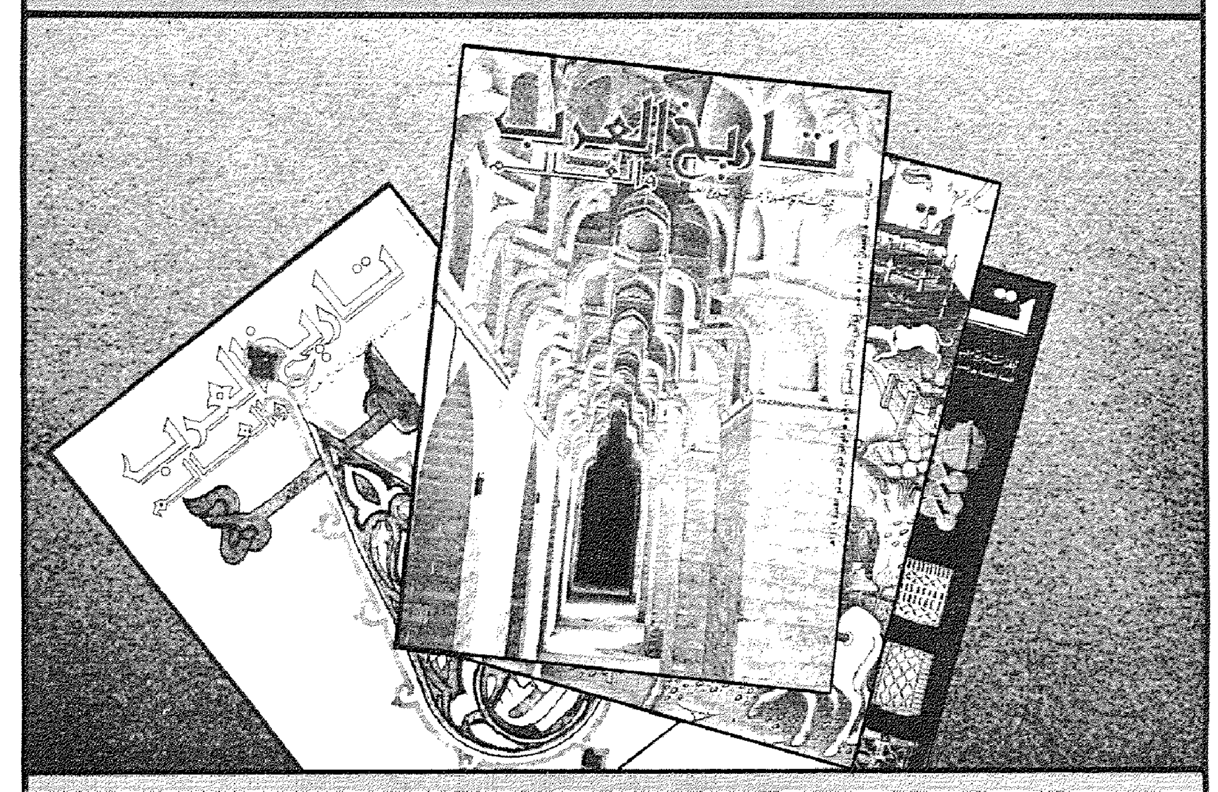
(الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

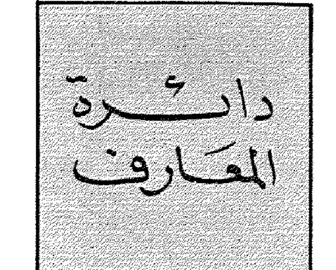


الاشتراكات

- في لبنان .... ١٥ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي......... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣





الهدنة اتفاقية لوقف العمليات العسكرية ولا تعني إنهاء حالة الحرب

الهدنة اتفاقية يتم إبرامها بين حكومات الدول أو الجماعات المتحاربة تقرر وقف الأعمال الحربية الدائرة بين أطرافها خلال مدة معينة. ولا يمكن تشبيه الهدنة بحالة السلام التي تترتب على إبرام الصلح، كما لا يمكن وصفها بأنها حالة سلام مؤقت، وذلك لأن الهدنة **لا تنهي** حالة الحرب. وعلى ذلك تستمر حالة الحرب قائمة بين أطراف اتفاقية الهدنة، كما تنتج حالة الحرب **آثارها** في علاقات **هؤلاء** الأطراف مع الدول المحايدة. ونتيجة لذلك فإنه من المقرر في القانون الدولي أن الدول المتحاربة تستطيع على الرغم من إبرام الهدنة ممارسة حق زيادة وتفتيش السفن المحايدة، كما يكون لها الحق في أسر السفن التي تحاول اختراق الحصر البحري، والحق في مصادرة المهربات الحربية.

وعلى الرغم من أن كافة اتفاقيات الهدنة متشابهة من حيث أثرها في وقف الأعمال الحربية، إلا أنه من الممكن التمييز بين الصور الآتية:

١ ــ **وقف القتال**: (Suspension of Arms) وقف القتال هو اتفاق مؤقت يبرم بين قواد القوتين المتحاربتين مؤداه تعطيل أعمال القتال خلال فترة قصيرة لأسباب لها طابع عسكري محلي.

٢ ــ **الهدنة العامة**: (General Armistice) تتميز الهدنة العامة عن وقف القتال بالمعنى الضيق في أن لها طابعاً سياسياً في حين يعتبر وقف القتال عملاً عسكرياً. ويترتب على الهدنة العامة وقف الأعمال الحربية بصفة عامة بالنسبة لكل القوات المسلحة التابعة للمتحاربين وبالنسبة لكافة مناطق الحرب.

٣ ــ **الهدنة الجزئية**: (Partial Armistice) الهدنة الجزئية اتفاقية مقتضاها قبول المتحاربين لوقف الأعمال الحربية على نطاق واسع يمتد لكي يشمل جانباً هاماً من القوات المسلحة أو منطقة كبيرة من مناطق العمليات الحربية.

أما فيما يتعلق بالسلطة المختصة بإبرام اتفاقيات الهدنة فيجب عمل التمييز الآتي:

١ ــ **القواد العسكريون المحليون**: يستطيع القواد العسكريون المحليون إبرام اتفاقيات وقف القتال بالمعنى الضيق حيث أن الباعث عليها يكون باعثاً عسكرياً محلياً كما أن مدتها مؤقتة. على أن هؤلاء القواد لا يبرمون عادة مثل هذه الاتفاقيات قبل الرجوع إلى القائد العام للقوات المسلحة.

٢ ــ **القائد العام للقوات المسلحة**: يستطيع القائد العام للقوات المسلحة إبرام الهدنة الجزئية دون حاجة إلى تصديق دولته، أما الهدنة العامة فيجب التصديق عليها من السلطات العليا في دولته.

٣ ــ **الحكومات**: تختص الحكومات بإبرام الهدنة العامة لما لها من طابع سياسي ولما لها من أثر مباشر في سير الحرب.

أما عن النتائج القانونية المترتبة على إبرام اتفاقية الهدنة فيمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١ ـــ وقف الأعمال الحربية بصفة كاملة أو جزئية وفقاً للأحكام المتفق عليها في اتفاقية الهدنة وعند خطوط الهدنة المتفق عليها.

٢ ـــ يكون من حق كل طرف الاستمرار في استعداداته الحربية وفي تسلحه ما دام أن هذه الأعمال تجري بعيداً عن الخطوط والجبهات التي تفصل بين الفريقين المتحاربين.

٣ ـــ يوجد خلاف في الرأي بشأن حق الدول المتحاربة في زيادة قواتها العسكرية الموجودة على خطوط القتال الأمامية، والرأي الراجح أن مثل هذه الأعمال تعتبر غير مباحة لأنها تدخل تغييراً في الحالة العسكرية عند خطوط الهدنة كان من الممكن أن يمنعه الطرف الآخر لو أن الأعمال الحربية كانت مستمرة.

٤ ـــ تبقي الهدنة على حقوق وواجبات المحايدين في البر وفي البحر إذ أن حالة الحرب تظل قائمة.

وتبدأ الهدنة في إنتاج الآثار القانونية المتقدمة من تاريخ إبرامها أو من التاريخ المحدد فيها لهذا الغرض. وعندما تكون القوات المحاربة موزعة على جبهات مختلفة وعلى مساحات كبيرة فإنه من الجائز أن يتم الاتفاق على تحديد تواريخ مختلفة لبدء الهدنة بالنسبة للجبهات المتعددة. ويحصل أحياناً أن تستمر بعض الوحدات في أعمال القتال بعد بدء الهدنة وذلك لأن تعليمات وقف القتال لم تصل إليها في الوقت المناسب ومن المقرر في مثل هذه الأحوال أنه يجب إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه في الوقت الذي كان محدداً لوقف القتال بالتطبيق لاتفاقية الهدنة.

ولا يجوز للقوات المحاربة التابعة لأطراف الهدنة خرق الهدنة. وإذا ما قامت القوات المسلحة التابعة لطرف بأعمال حربية ضد الطرف الآخر إخلالاً منها بشروط الهدنة، فإنها تعتبر مسؤولة دولياً، ومع ذلك فإذا ثبت أن خرق الهدنة كان نتيجة لأعمال قوات الميدان بدون تصريح من الدولة فإن المسؤولية تنصب على الأفراد الذين أمروا بها، وتجب معاقبتهم.

ولقد قام خلاف في الرأي حول موقف الدولة التي تضار نتيجة لخرق الهدنة.

ويمكن تلخيص الأحكام التي أتت بها المادة الأربعون من اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ فيما يتعلق بخرق الهدنة على النحو الآتي:

١ ـــ إذا كان خرق الهدنة ليس جسيماً فإنه لا يبرر نقضها من جانب الطرف الآخر في اتفاقية الهدنة.

٢ ـــ تبرر المخالفات الجسيمة لاتفاقية الهدنة إعلان الطرف الآخر لتحلله منها ولا يجوز له استئناف القتال قبل هذا الإعلان.

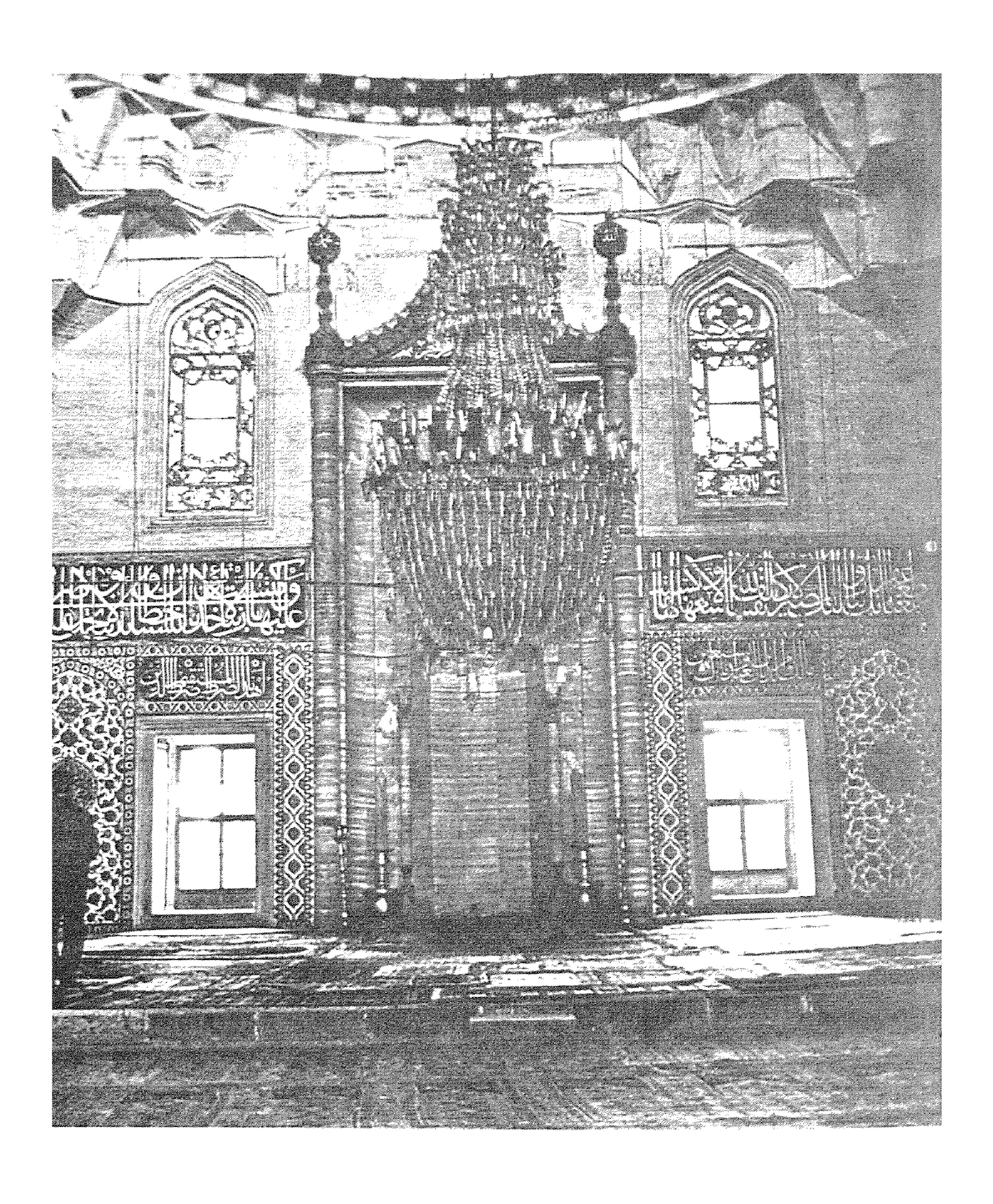
٣ ـــ في حالات الضرورة يجوز استئناف القتال فوراً.

د. محمد حافظ غانم
جامعة عين شمس

إن شاء الله!

- خرج رجل إلى السوق يشتري حماراً، فلقيه صديق له، فسأله أين هو ذاهب، فقال:
إلى السوق لأشتري حماراً.
فقال:
قل إن شاء الله.
قال:
ليس ها هنا موضــع إن شاء الله: الدراهم في كمّي، والحمار في السوق.
فبينما هو يطلب الحمار، سُرقت منه الدراهم، فرجــع خائباً، فلقيه صديقه فقال له:
ما صنعت؟
قال: سُرقت الدراهمُ إن شاء الله!

من كتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي



□ زخرفة داخلية في مسجد السلطان سليم في أدرنة.